علي السباعي



دار الشؤون الثقافية العامة

علي السباعي

زليخات يوسف

قصص

دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد – ٢٠٠٥ م

-مريم البلقاء

أردت بكتـــابتي لهـــذه
القصـة أن أحـاكي جمـال
خيـول فـائق حسـن ، منـذ
طفولتنـا مـريم بنـت عمـي
وأنـــا مفتونـــان بهـــا ،
برشـــاقتها ، بنبلهـــا ،
بمتانتها ، بجمالها ، أردت
أن أنتمـي الـى الانسـانية
بهـذه القصـــة وأحـــاكي
ألوان مبدعنا الكبير فائق
حسـن بعـد واحـد واربعـين
عامـا مـن رسـمه لوحـة "
البـدو" التـي كانـت حاضـر
مهـر مـريم بنـت عمـي ،
أردت تحـدي نفسـي مثلمـا
تحـــدى المهنـــدس " جـــان
كلـــود ديســـتيفن " مـــن
أصـل فـرنسـي ، غوسـتاف
ايفـل ، فقـرر بنـاء بـرج في

لـــوس انجيلـــيس يبلـــغ
ضـــعف ايفـــل تقريبـــا ،
طولـــه ســـت مئـــة وعشـــر
أمتـــار، ووزنـــه خمســـة
عشـــر طنـــا ، وأطلـــق على
تصـــميمه أســـم :" بـــرج
السلام" .
الان – أعتذر عن طموحي
البائس هـذا . أوه نسـيت
اخبـاركم أن طـول بـرج
أيفـل ثلاثمئـة مترا ووزنـه
ســـبعة الاف طنـــا مـــن
الحديـــــد المزخـــــرف ،
سأسمي قصتي :

مريمُ البلقاء

مونمــواه ... مونمــواه ... مونمــواه ... بــالامس أحتفــل العـالم بعيـد الحـب ، كان بائسـا . فارغـا . باهتـا ، بينمـا العـالم لاه يحتفـل بالعيـد حبـا ، طلبـوا مني بأقتضـاب : خـذ ثـأر بنـت عمـك وخطيبتـك " مـريم " ، وأحفـظ لنـا هيبتنــا ، بعــدما أعطــوني ســيف جــدي اللامــع الــذي جردتــه جــدتي مــن غمــده منــذ أن أخــذ الانكليــز رأس جدي معهم الى لندن حسب أوامر الملكة فكتوريا ، من يومهـا والسـيف لـم يغمـد ، وأعطتني جـدتي جـديلتيها الســوداوين اللتــين قطعتهمــا بسـيف جـدي ملفـوفتين برايـة الحسـين الخضـراء ، ومنحـوني فرسـا بلقـاء مـن نسـل فـرس جـدي تشـبه أحـدى خيـول فـائق حسـن في لوحة البدو ، أخبرني أبي أن جدي لفظ أنفاسه الاخيرة وعينـاه كانتـا تصـرخان صـرخة الحـلاج : ((اقتلـوني يـا ثقــاتي ان في مــوتي حيــاتي)). حشـروني عنـوة داخـل دهليــز ضــيق ، ضــيق وغيـر نافــذ ، مســدود النهايــة وضـعوني على المحـك فـوق السـندان تحـت المطرقـة ،

أخبرتهم بأنني انتمي الى الانسانية ، ضحكوا علي بعمق ، فعشت حياتي كلها بين المطرقة والسندان عكس أسلافي ، بعد أن وقع الفأس على رأسي ، لأن جدتي أصرت أن يكون مهر مريم هو أخذي لثأر جدي من قاتليه ، وأيمانا مني بأن المؤمنين مبتلون ، أخذت نصيحة أبي الذي قال لي في صغري : بني لا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ، انفقت حياتي برمتها غير ساع للثأر ، رغم أصولي البدوية لم يك ثأري ثأرا بدويا ، لا أخفيكم سرا : كانت خلاصة حياتي شبيه بخلاصة حياة زهور حسين ، نصيبها الرقص فقط !

ضحكت من نفسي على نفسي في دخيلة نفسي عندما تصورت أنني مثل عنترة بن شداد ذهب ليجلب مهر عبلة نوقا ، عاد بنوقه ولم يجد عبلته ، فبكيت عليه في سري ، وباركت جلال الدين الرومي عندما قال : ((الحب عذاب الحب يقتل)) . فتناسوا أهلي أن مريم أرادت بموتها التخلص من ضيق جسدها لحبها الكبير لي ، ذلك ما أخبرني به أدوانيس عندما التقيته في أحد أحلام يقظتي : تخلصت مريم حبيبتك من ذاتها –

فرديتها وتوحدت معك ، خرجت ذاتها لتدخل بذاتك ، غـادرت حبيبتـك ضـمأها الى ارتوائـك ، الى وجودهـا المليء بـك ... لهـذا أصـبحت كمـا يصـفك أبـن عربـي[1] .. لكنهم كـانوا يـرددون دومـا : لا يهـم لـون القـط مـادام يصطاد الفئران ، من يومها وأنا أغني على ليلاي ، ولم أخذ ثأرها ولا ثأر جدي ، وتفرق دمها ، وضاعت هيبتنا أمام أنفسنا قبل أن تضيع بين بطون وأفخاذ القبائل ، تضحك مريم عنـدما أخبرهـا : أن ثـأر جـدنا كان مثـل موسيقى عنتر وعبلة ، تلاطفني مازحة : ((صدق معلم اللغة العربية الذي درسنا في صف الخامس الابتدائي "ستار طاهر" عندما طلب منا كتابة موضوع انشـائي عنوانـه : أن الاوانـي الفارغـة تحـدث ضـجيجا)) ، أقرصها من خدها الذي يلتمع على بشرته لون العسل الحي ، أعشـقك مثل عشـق شـارلمان لفتاتـه[2] .. تـومئ لي

---

[1] صفات المحبوب عند أبن عربـي : بتعـاظم صـورة المحبـوب وتضخمها بحيث يضيق خيال المحب عن استيعابها ، مما يؤدي الى نحول بدنه ، وتغير صورته – فيصفر لونه ، وتذبل شفتاه ، وتغور عيناه ، وتضعف قواه ، ويغشى عليه اذا راه ، ويصعق ، في الاخير ، قد يجن .

[2] اسطورة قديمة : ((عشق الامبراطور شارلمان في أواخر أيامه فتاة ألمانية ، وقلق البارونات في بلاطه كثيرا عندما رأوا العاهل مأخوذا بعاطفة الحب ، وشارد الذهن تماما عن مكانته الملكية ، مهملا شؤون الدولة . وحين توفيت الفتاة ارتاح رجال

بسبابتها الوديعة المثيرة وتبتسم بمشقة قائلة : كذاب . أمسكت اصبعها لبضع دقائق بدت لي لا نهاية لها ، افلتت اصبعها مثل ظل ، جاهدت طويلا . كثيرا للتخلص من صفات برج الجوزاء لأكتسب مزايا برج الاسد لأكون انية ممتلئة ، واتخلص من طالعي السيئ . " ثأري " ، كنت متشائما ، وتشاؤمي نابع من أنني موسوم منذ ولادتي بسوء الطالع ، جلبته لي أمي التي كانت طوال فترة حملها بي تبكي فجلبت لي الحظ السيئ والحياة القلقة المتسممه ، اذكر جيدا نبوءة معلم التاريخ في الابتدائية " طاهر جعفر " عندما قال هاتفا ورذاذ لعابه يمطر وجوهنا الشاهقة النائية . تسمعه : ((أبنائي . أن كل الدروب تؤدي الى روما)) . لحظتها . لا أدري من أنطقني : أستاذ أنت واهم . أنت

البلاط ارتياحا عظيما ، الا أن هذا الارتياح لم يدم طويلا ، لأن حب شارلمان لم يمت بموت الفتاة ، اذ أمر بنقل الجثمان المحنط الى غرفة نومه ، ورفض أن ينفصل عنه . وشك الاسقف (توربن) الذي أثارته هذه العاطفة المروعة ، أن يكون في الامر نوع من السحر ، وأصر على فحص الجثمان ، فوجد خاتما ذا فص ثمين تحت لسان الفتاة الميتة وما أن أصبح الخاتم بين يدي (توربن) حتى عشقه " شارلمان " وأمر بدفن الفتاة بسرعة ، ولكي يتخلص (توربن) من هذه الوضعية المحرجة ، ألقى بالخاتم في بحيرة ((كونستانس)) . وهكذا عشق " شارلمان " البحيرة ، ولم يعد يستطيع مغادرة شواطئها .

مخدوع . مضلل ، غضب مني فضربني بكتاب التاريخ
على أم رأسي فتسببت الضربة بثلم سني الاعلى الايمن
، لشدة ألمي عارضته متحديا : ((وليم أوف لاهارتي[٣]
يرى دائما أن الانسان هو أكمل شيء في هذه الدنيا))
أبتسم بأستخفاف ، وقال بقسوة تلائم البسمة
المستخفة : سيكشف لك التاريخ كم أنت مضلل .
مخدوع ، العام الماضي تكشف لي زيف ما كنت أؤمن
به من حقائق عندما ظهر سلفيوبر لسكوني على
شاشات التلفزة ودعى لحرب صيلبية . ضد الاسلام
والمسلمين بعد أحداث الحادي عشر من أيلول عام
ألفين وواحد ، عرفت أن أخذ ثأري مثل بحث أمريكا
عن الشيخ أسامة بن لادن ، عزفت عن نيل ثأري ،

---

[٣] ولد الموسيقي الفلندي " يان سبيليوس " في هلسنكي عام ١٨٦٥ .. وفي عام ١٩٥٧ كانت الابواق النحاسية والكمانات تعزف للمرة الاولى ألحانا حزينة ... ويقال أن الظلام أيضا خيم منذ ذلك الوقت على الشرفات الفنلندية التي كانت سابقا تزدان بالورد والدانتيلا المخرمة ، حيث توقف قلب ذلك الموسيقي المعروف . يعد من ألمع مؤلفي الموسيقى الكلاسيكية . سيمفونية " الوزة " بدأت ألحانه الايقاعية من أسطورة " الوزة " ذات التقاسيم النغمية المتوافقة التي ألفها عام ١٨٩٢ وكان عمره أنذاك سبعا وعشرين سنة . عدت من الموسيقى الوطنية الفنلندية . تونيلا وصف حالة السكون المهيمن بين صخرتين عاليتين في بحر تونيلا حيث تطفو الوزة على سطحه بين الهدوء الساطع وهي تغني غناءا شجيا مؤثرا ... الوزة من تونيلا .

ورحت أنزع جلدي مثلما تنزع الحية جلدها . حذاري فثمة وراء كل واحد منكم قابيله ، مثلما هو ورائي يطعنني . أذن . بالتأكيد يطعنكم ، وهابيل المسكين أمامكم " أمامي " يناديكم " يناديني " ، مثله لم أحرك ساكنا سوى الاحتفاظ بالسيف " سيف جدي " ومراقبة لمعانه . أحس بمتعة طازجة وأنا أنظر بصمت صاف خالص اليه منتظرا صدأه ، ولا يكسر سكوني سوى وقع حوافر البلقاء التي عكسي ملت الانتظار وراحت تخبط الارض بحوافرها ضجرة فكان صوت خبط سنابكها يشبه صوت تكسر بيض بحذوة فرس ،(فالموريات قدحا) ، ليتني أعرف تفسيرا لسر الشراكة بين نظرات مريم والبلقاء التي نفقت انتظارا كوني لم أمتطيها أبدا كنت أنزهها خلفي مثل كلبتي المدللة ، كوني أبن مدينة عشت على طريقة النعامة التي تدفن رأسها في الرمال اذ ما داهمها خطر ، عمتي أم مريم لفرط طيبتها اخت بين القط والفأر وجعلت عيش القط بجانب الفأر ممكنا ، نافست شارون الذي وحده من آخى بين الذئب والحمل قي قفص واحد ، روت لي زوجة عمي – عمتي أم مريم – بطيبتها المتناهية : ليلة زفافها ، أثناء قدوم موكب زفتها من دار

أهلها الى منزل جدي رحمه الله ، رأى عمي أبو مريم " أبن اوى " صغيرا مسكينا يرتجف منتفضا من شدة البرد ، الموكب ضاج بالدبكات والاهازيج والرقصات والزغاريد الجنوبية - تركهم عمي – وجلب أبن اوى بين ذراعيه ، ترك عمتي تسير بجانبه وحيدة خائبة ، ولم يكتف بهذا بل أنفق ليلته كلها يرضع أبن اوى برضاعة صناعية من رضاعات حليب الاطفال حتى وجه الفجر ، نام ليلته يحتضن بين ذراعيه أبن اوى ويضمه الى حضنه ليلتين متتاليتين بدلا من عمتي أم مريم ، هكذا اكتسبت عمتي بنود نظريتها في التدجين من خطة رضاعة حليب الاطفال وبأرادة عمي دجنت أبن اوى وجعلته يستأنس العيش داجنا قبالت دجاجاتها ، انفقت أمي من عمرها عذابا وألما يومين ونصف اليوم في قلق مكابد قبل أن تلدني ، وكأنها انتظرت ولادة مريم بنفس ساعة ولادتي ، ولدتني أمي يوم خميس العاشر من شهر حزيران عام سبعين وتسعمائة بعد الالف صباحا الساعة التاسعة والنصف تماما . ذلك ما دونه أبي في يومياته ، شاركتني مريم في كل شيء ، أذكر يوم دخلنا سوية الى اكاديمية الفنون الجميلة ، قسم الفنون التشكيلية ،

وتخرجنا سوية بعدما نفذنا " سوية " مشروع تخرجنا كانت فكرة مشروع تخرجنا وليدة احدى خرافات جدتي ذات اللسان الغسقي التي اخبرتنا في احدى قصصها أن طيران الخيول في السماء – فتنه – فأردنا برسمها على واجه كليتنا أن نفتن الناس : ((خيول تنبثق عبر التاريخ ،(والعاديات ضبحا) ، من حبسها في قاعات الدراسة ، تخرج محطمة زجاج شبابيك قاعات الكلية ، (فالموريات قدحا) ، تتراكض منفلته من اسارها ،(فالمغيرات صبحا) ، أسر الجدران ، ثلاث خيول برية بهية نابضة بلون البلوط ، (فأثرن به نقعا) ، رسمناها مثل خيول فائق حسن متينة المظهر نبيلة ، ثابتة ، مهيبة ، تنساب سابحة خلفها ذيولها السود المخضرة التي رسمناها بلون البرونز العتيق ساحبة خلفها اشرطة الالوان الحارة ، يومها كانت مريم ملطخة بالدهان متوهجة مثل ورد القرنفل عطره متفتحة ، تتطلع نحوي مرتسمة على وجهها ابتسامة أكلت وجهها كله وراحت ترسم ظلالا خلفها تملا الكون بأبتسامتها ، طلبت مني طلبا غريبا ، وافقت بمحبة أكيدة ، راحت ترسم لي حاجبين كثين بدل حاجبي الخفيفين ، كانت تضحك وهي ترسم ، تضحك

على حركـة حـاجبي الخفيفـين اللـذين لـيس فيهمـا ايمـاءات هامـة غير وظيفـة اظهـار عيني كبيرتين مثـل عيـون بقـرة كمـا تقـول. فـائق حسـن بحاجبيـه الكثـين واضعا غليونه بفمه متأملا خيوله التي اخترقت لوحته البيضاء العذراء وأنبثق منها فرس بلوطي شاقا خامتها ،(فوسـطن بـه جمعـا) ، ثمـة سـر غريـب تشـعه عينـا الفـرس وعينـا فـائق حسـن تسـقبلانه بمهـاره ، بجانبـه جواد سليم خاصما عينيه متطلعا بأبتسامة تئج حنانا ، مقلصا عينيه أكثر متقيا انبعاث مهرجان الخيول من لوحة صديقه فائق حسن ، عيناه تتابعان جري خيـول فـائق وانطلاقهـا ناحيـة سـماء بغـداد ، رشـيقة صـاهلة جريئـة رائعـة ، هنـا لـكزتني مـريم : ((لقـد تحققـت خرافة جدتي)) .

*   *   *

أنـه ادار[٤]. نـوروز . عيـد الربيـع ، ذهبنـا بعـد مـرور سـنة على وفـاة مريم . أهلهـا . أهلي ، وأنـا حيث ترقـد بسـلام

---

[٤] ادار . من شهور السنة البابلية مثل (كنن) كانون و ((وشبط)) أي شباط و (ادار) أي اذار ، (الول) أي أيــــول (تشري) أي تشرين و (دموز) أي تموز ، (نيسن) أي نيسان في الكتابة البابلية والاشورية .

في وادي السلام رقدتها الاخيرة ، ازدحام هائل صادفنا ، ازدحام شديد صادف ذكرى استشهاد حامل راية كربلاء ، تهنا لفرط الناس الزائرين أمواتهم ولكثرة قبور الموتى ضعنا بينها ، ضللنا طريقنا صوب قبرها . نأينا . نأينا بعيدا ، بقينا نهارا بأكمله نبحث عن شاخص ضريحها ، ضاع ضحى النهار بالتفتيش بين شواهد القبور عن شاهد يحمل أسمها ، جزعنا ، فكان يأسنا قد أيبس شفاهنا ، أخرجت لساني أرطب شفتي ، لم نهتد أليها ، قررنا العودة خائبين ، ونحن نرجع سمع كل من في المقبرة ، أهلها ، أهلي والناس المحيطين بنا : صوتا ، صوتها ، نداءها يهتف بي : يا سبعي ! صوت يتفتق نابعا من تحرك وضجيج ولغط الزوار، صاف مثل حلم ، أنبثق كالنافورة من قبرها كثيفا واثقا مائيا يصعد مصعدا ندائها : يا سبعي ! الصوت أبدا لم يكن غريبا ، كان صوتها .. صوت مريم ، ذهل الناس أمام هذا الصوت المنبعث عن كومة أحجار تشاهد قبرها حبسوا أنفاسهم كأن الناس جمعوا لاخر مرة ليسمعوا نداء الحشر ، ثم واذا بصرخة ثالثة نافذة الصبر هزت المقبرة بمن فيها : يا سبعي !

مريم ، مريم التي قد خرجت من أحد أضلعي أنفقت عمري مثل ادم أبحث عن ضلعي الناقص : مريم . رفع زوار القبور اعناقهم بحركة واحدة لأثر ندائها الثالث وكأنهم دجاج يشرب الماء – هنا – أغمي علي – بت أسمع صوت وقع حوافر فرس رامحة فوق كلس القبور ، الكلس يتكسر تحت سنابكها . الصوت قادم ، قادم ، ضوضاء ، ضوضاء حوافرها تتصاعد . تتصاعد . الوقع يتصاعد . يتصاعد . يقترب أبصرت من غيبوبتي فرس جدي البلقاء تمتطيها مريم ، مرتدية بدلة زفافها ، مثل فتيات شارع الزواج في لكش ، علقت على صدرها شالين حريرين أحدهما أزرق والاخر أحمر ، وبينهما لافته مكتوب عليها : أليك ... اليك . وتعني أنها تطلب الزواج ، ترجلت ، فذكرني لون شالها الاحمر بالذات أيام كنا طلابا في المدرسة الابتدائية ، كنت أقترب منها لأسرق شريطها الاحمر التي تعقص به ضفيرتها ، وبسرقتي لشريطها الاحمر كانت رئتاي تسرقان عبيرها ، فتمتلان عطرا ، كنت أسرق شريطها الاحمر لاغاضتها كوني أحب أن أرى شكل أنفها وهي مغتاظة توقظني من غيبوبتي : ((أصح يا عنتر . أصح فقد ذبحت عبلتك ومازلت تحلم بها

وأنـت تمطي صهوة جـوادك تضـمها جـوارك . أصح يـا عنترر)) نظـرت الي بعينـين دامعتـين ، فألتقـت اعيننـا بنظرة لا نهائية كأنها الحياة برمتها ، جأرت مريم قائلة : أنا وحيدة يا سبعي !

أجبتها : ألهذا جئتني زائرة ؟

قالت : شفاهي يابسة .

اليا اخرجت لساني لترطيب شفتي السفلى ذات الخط الجميـل الـذي تحبـه مـريم وتداعبـه بسـبابتها الوديعـة المثيرة ، يـا ألهي : أي عـذاب هـذا ، قلـت وبحـة العطش تيبس حنجرتي : أنا في اتعس حال يا مريم ؟

قالت : هل لي ؟

قلت بصورة مفاجئة : كلا

ادهشـتني مـريم بأنهـا أكثر شـبابا مـن أن يتخيلهـا واحـد مثلـي ، قـوام ممشـوق مضـفور مـن طـراوة ونعومـة وصلابة وقـوة ، دافئ كالعسل بارد كالحليب ، مستقيمة رشيقة أه أنها كل ذلك وبلون العسل الحي خاطبتني :

-جئتك يا سبعي لأنني أعاني الوحدة .

أكملت :

- الوحدة قاتلة برعبها يا سبعي . لذا جئتك زائرة .

كان بياض عينيها يهبها رغم أنف الموت فتنة وعمقا وجاذبية . كانتا تشتعلان تومضان بألق وهج باهر كانت تشابهان عيني فائق حسن وعيني جدي نظرت متنبئة ، عارفة ، متنبهة ، فزعة ، عالمة بموتها ، هاربة تلك الخيول من أسار موتها نحو فلوات بغداد . لا أدري بماذا أعلل اصرار مريم على رسم عيون فائق حسن وعيون خيوله ؟ وتركت لي رسم عيون جواد سليم ، عينا مريم تحدقان بي ، منعتاني من تحويل بصري عنهما لمعت عيناها ناطقتين بطلب قاس ظاهر مفضوح وكلماتها تنساب من بين شفتيها بنعومة مؤلمة :

- أنا في أسوء حال يا سبعي .

يدها اليمنى تمتد أمامها ، تصافحني بأصابع طرية متوسلة بطلبها ، استمرت أصابعها الوديعة المثيرة بطراوتها تتوسل نداءاتها ، صافحتني أصابعها . أصابعها الباردة تماما والرخوة تماما ، استمتعت

بأحساس قاتم لبرودتها ، تلمست برودتها ، كان جواد سليم يؤكد لنا دوما : ((أن ما يميزنا كبشر أننا متناقضون)) . طافت دهشة باردة رخوة في عينيها من غير أن تدع كفي تفلت من يدها ، ابتسمت . فجأة. انبرت قائلة :

- هلا جئتني ميتا يا سبعي ؟

بوجهها الابيض العريض وعينيها اللتين كانتا دائما : خائفتين ، ومتشككتين قليلا ، قلت وكانت مريم صامتة :

- ربما كرهت يا مريم أنك مت هكذا ميتة ؟

نظرت الي ، وقالت :

- يا سبعي . كانت ميتة مرعبة . لذا جئت أليك .

تطلعت الي بعينيها الخائفتين المتشككتين ، وقالت :

- اتوسل أليك أن تصنع لي جميلا ؟ أتوسل اليك يا سبعي أن تأتي معي .

قلت بصوت اثقلته المفاجأة :

-أألى الموت ؟

قالت :

-نعم . وبسرعة الى الموت . أتوسل اليك .

امسكت مريم يدي اليسرى السائبة بيدها اليسرى الباردة كالثلج تماما والرخوة كالشحم تماما ، قالت :

-تعال . هنا . مت .

نظرت حيث اشارت بيدها اليمنى الباردة كالثلج بالضبط والرخوة كالشحم بالضبط بعدما تركت يدي اليمنى التي صافحتها بها ، ناحية قبرها ، قالت :

-أتوسل اليك . أنظر الي . ومت . افعلها من أجلي . أنت تعرفني يا سبعي . تعرف مريم . تعرفني جيدا . أقنع نفسك بأن تتمدد بجانبي ، فستكون في الحال ممددا هنا – بقربي – ميتا .

أكملت :

-أتوسل اليك يا سبعي . أفعلها من أجلي . ومت . أتوسل اليك .

مرعب وغريب ما يحصل لي . جلست أنظر أمامي بحزن ، قلت لها بعدما لونت صوتي بنبرة مشاركة :

- أنا ميت معك يا مريم . بلا شك . ميت . معك .

تصمت ، فقلت بلهجة باترة :

- ما جدوى موتي . الان . فأنا من يوم موتك . قد . مت .

حدثت نفسي : لن أخسر شيئا بمشاركتها فأنا ميت من يوم مماتها ، التقطت بأصابعي الساخنة قليلا من التراب المعجون بدمها وتشممته : كان ترابا كامدا باردا بالضبط مثل ملمس أصابعها قبل قليل ، ذلك ما اوحته لي حركة ارنبة انفها المحببة لي ، وكأنها هي التي تشممته ، وليس أنا ، لم يك سوى أنفاسي وثمة رائحة عتيقة تتصاعد من التراب الكامد ، انتابني خوف شديد ، وجهها ذو البياض الحليبي الخالص ، أبيض حي تملأه الدهشة ، وهمست :

-تراب غريب . غريب .

أمرتها بلهجتي البازة :

-شميّه يا مريم . شميّه .

التقطت من يدي بأصابعها الباردة تماما والرخوة تماما حفنة التراب ، لم تقل لي مريم يوما : سمعا وطاعة ، كونها رفضت لعب دور شهرزاد لأنها لم تك يوما ما شهرزادي ، وأنا لم أكن شهريارها ، كانت عبلتي مثلما أنا عنترتها ، قالت :

- جئتك منه يا سبعي . أنه تراب قبري . سأشمه بعمق . من أجلك .

حركة أرنبة أنفها تسحرني ، تجعلني مثل المجذوب وهي تشمه بعمق ، قالت بصوت مخنوق :

- ستموت قريبا . اليوم .

لمعت مقلتاها بألق معدني غامض ، تألق الافق خلفها متأججا بلسان ذهبي نيٍء ، ارتجف قلبي وأكتوى بنار نبوءتها ، رفعت نحوي عيناها اللتان كنستني بنظرة جافة عابرة لم أر فيها سوى التيه ، قالت بنبرة غير مبالية تماما :

- اقترب الان . موتك ، ذلك ما أنبأتني به رائحة التراب .

عارضتها :

-أنه ترابك . أنه زعفرانك . أنها أرضك .

تصاعدت سطوة عينيها المحدقتين بي ، قالت لي بثقة أضرمت الغضب في صدري :

-لا . أنه ترابك أنت . تراب قبرك .

زعقت : ماذا ؟

بأنفعال بسيط اجابت :

- به رائحتك يا سبعي . رائحة جسدك التي لطالما حلمت بشمها . لولا – تأرجدنا .

قلت متوترا :

- هذا غريب . غريب . ذلك غريب . مرعب .

تناولت حفنة أخرى من تراب قبرها ، شممته ، ألمحت بنبرة باردة :

- أنها رائحة تراب خالصة يا مريم .

ضحكت وهي تتشمم أصابعها ، بنبرة أكثر برودة من نبرتي مع شيء من نعومتها قالت :

-ياه . علقت رائحة جسمك في أصابعي . أشم ذلك أشمه .

راحت تتشمم أصابعها ، أسرتني حركة أرنبة أنفها ، اصطلمت لرؤيا عينيها الدعجاوين تفتشان باحثتين عن صدى كلماتها في وجهي ، شعرت بالانزعاج من تحديقها ، جاريتها ، مثلما أخذت اتشمم أصابعي بعدما نفضت التراب عنهن ، بدأ البرد يتسلل الى أصابعي ، أصابعي . الان باردة ، سرت البرودة ناحية معصمي ، معصمي بارد ، ساعدي غزاه البرد ، بدأ يبرد ، ساعدي بارد ، شممتها للمرة الثالثة ، كانت رائحتها باردة بالضبط رخوة بالضبط ، نظرت صوبي بعينين خائفتين ومتشككتين ، البرد مندفع يسري داخل جسدي كله ، قالت باستخفاف :

-بدأت تموت يا سبعي .

أخـذت قلـيلا مـن تـراب قبرهـا بـين أناملهـا البـاردة بالضبط والرخوة بالضبط ، دست أرنبة أنفها المحببة لي بعمق ، شمّته ، شمتّه بعمق ، وقد أشرق وجهها بفرح خافت ودود :

-أنه تراب قبرك .

انفجرت من عينيها الكهرمانيتين الخمريتين نظرة لا مبالية راسخة ، وأكملت :

-لقد بدأت . الان . تموت . تموت وبعمق .

تقدمت صوبها ، عيناها تئجان مترصدتين مسجلتين حركاتي ، بصوت هامس كحشرجة تفوهت وألق عينيها يزداد لا مبالاة ، قلت :

-أنك على حق ؟

جلست استنشق ترابي ، تراب قبري ، استنشقه بعمق ، استدارت لتمتطي صهوة البلقاء ، رأيت رأسها المفجوج من قحفها ، حفرة كبيرة احتلت رأسها من الخلف بوحشية ، تنبع متقاطرة منه وأليه الدود . نمل . نمل أسود فارسي من نمل الارض يدّب حثيثا فوق

شعرها الذي انسكب كشلال أسود مثل ذيول خيول فائق حسن ، تذكرت سرقتي لشريطها الاحمر : رأس البلقاء مهشم يتقاطر منه نمل فارسي كبير أفواجا غزيرة ، عيناي تشتعلان : تشتعلان وهما ترقبان تساقط النمل وانهماره مثل قطرات سائل كثيف مائع لزج ، مددت أصابعي الراعشة متلمسا النمل ، لم يك نملا . كان دما ، دما يانعا كالقطيفة ملمسه بلون وردة القرنفل . استكمل البرد اجتياح جسدي كله ، اعقب الاجتياح ، احتلال بارد لعيني ، دم بارد مثل نمل فارسي يدبي فوق تراب بارد برودة النمل ، ايقظتني من غيبوبتي برودة ندائها ونظراتها الميتة الباردة بعدما امتطت البلقاء : أصح يا سبعي ، فقد ذبحت مريمك .اصح . اصح يا سبعي .

أفقت . أهلها ، أهلي ، وزوار قبور الموتى متجمهرون ملتفون حولي مثل أوراق الملفوف حول قلبها ، وجدت نفسي لأول مرة في بؤرة اهتمام الاخرين ، رؤوس تطفو فوقي بأفواه مفتوحة مفغورة ، ورأيت وجوه الذين أحبهم ، أمي تلطم خدودها ، عمتي أم مريم تضرب صدرها فيرتج نهداها الكبيران الخرافيان مصطكين

متدافعين متخاصمين يتناطحان بعمق ، أبي كعادته لا يملك غير أن يبسمل ويحوقل ويستغفر ويكبر ، وعمي أبو مريم يرش الماء على وجهي ، وعيناه دامعتان ، ولسانه يلعق شفته السفلى العريضة مرطبا مثله رحت العق شفتي السفلى مرطبا فمي اليابس .كانت جدتي تدعوا لجدي بلسانها الغسقي وفمها ذي الناب الواحد أن يطيل الله عمره كل مساء بعدما تخلع فوطتها وما طال عمره ، طار رأسه بحربة انكليزية ويمكث رأسه الان في أحد متاحف لندن عكس كانت أمي أطال الله عمرها تدعوا علي بلسانها الاصهب وفمها حلو الاسنان كل مساء قبل أذان المغرب تماما أن يأخذ الله عمري ، لا أدري أيأخذ رأسي بسيف من ؟ أو بحبل مشنقة وعلى يد من ؟ يطاردني الموت بأبهى صوره منذ كنت طفلا ، يتراءى لي موتي ، أحلم دائما بالموت ، ميت اعداما .ليلة خميس العشرون من أدار عام سبع وتسعون وتسعمائة بعد الالف جاءني جدي بعينيه المميزتين الشبيهتين بعيني فائق حسن وحاجبيه الخفيفين جعلا عينيه تبدوان مفتوحتين بأتساع ، كنت عاريا تماما شهيا تماما ساخنا تماما أثناء نومي ، مضطجعا على ظهري ، وضع جدي كفيه العريضتين

اللاهبتـين فـوق جسـمي ، اليمنى عنـد الصـدر فـوق القلب تماما ، واليسرى ضغطها بشدة فوق سرتي . لا أدري لمـاذا أختـار سـرتي ، احسسـت تيـارا سـاخنا يخترقني ، يتـدفق بـي ، يجتـاحني ، يتغلغـل منتشـرا مكتسحا خلاياي كلها ، كانت موجات لظى يديه تصعد وتهبط ، تغوص وتطفو تصهرني ، انبثت سخونة يديه بشكل مستقيم ، عرضي ، وطولي عشوائي ، تشعبت حرارتـه متدافعـة بـدبيبها اللاسـع يشـوي جسـدي محمصـا ، أحـس بشـفتي يابسـتين ، أظهـرت لسـاني الزبرجدي الاحمر أرطبهما يداي تجفان ، كانت بي رغبة بلطعهمـا ، وجـدت نفسـي أشـوى بسـخونة يديـة ، اتقدت لحين استكمال تحميص لحمي حتى صار بلون البلـوط ، أبصره بعيني المتسعتين تماما والمستغربتين تمامـا لمـا يجـري ، وبـدأ جـدي يلتهمني وعينـاه تـدمعان بغزارة شرع اكلا شفتي ، شفتي اللتين لتوي رطبتهما بلعـابي واللتـين كانـت تحبهمـا مـريم وتقـول عنهمـا : شفتاك تعجباني يا سبعي .

البلقـاء تـرمح خلـف جـدي محمحمـة صـاهلة ، أسـمع نقر سنابكها ، حوافرها تلطم بلاط الغرفة ، أبصره –

أراه يأكل وجهي الا عيني المفتوحتين بأتساع تماما ، أكلني بشهية ، بشهية وهدوء عجيبين التهمني ، وحسدته على شهيته وهدوئه الغريب . الغريب تماما ، أقول لكم الحق ، اشتهيت مشاركته الاكل الا أنه أتلف متعتي وسد شهيتي عندما أقتطع عضوي ، وألتهمه بلقمة واحدة ، تذكرت يوم ختاني الذي تم على يد دكتور مصري يدعى خالد مصطفى . يوم سبت الرابع والعشرين من شهر حزيران عام أثنين وسبعين وتسعمائة بعد الالف . مساءا الساعة السابعة والنصف تماما ، وافق تاريخ ختاني مولد يوحنا " يحيى " ذلك ما دونه أبي في يومياته ، أنه التاريخ الوحيد الذي لم تشاركني فيه مريم ، ولم أشاطرها في ظهور أسناني اذ ظهرت أسنانها قبل طلوع أسناني أتى على لحمي كله ، بعدها شرع يمصمص عظامي ، البلقاء ترمح صاهلة خلفه ، ووقع حوافرها يتصاعد . يتصاعد يقترب ، يتقدم ناحيتي . أنه قادم ، قادم ، أخذ جدي يدي وقال لي : قم . أنت . ميت .

تؤكد جدتي أطال الله عمرها بلسانها الغسقي : أن الاحلام اذ ما صاحبها دم ، فالحلم يفسد أليا ، واذا

كـان الحلـم بـلا دم ، سـيتحقق بالتأكيـد ، ولكـي لا يتحقـق نصحتنا أن نتبـع وصـيتها : أبنـائي . أن حلـم أحـدكم بحلـم مـزعج ولـم يـك فيـه دمـا ، عليـه حـال نهوضه من نومه أن لا يقص حلمه على أي أحد كان ، ويـذهب مباشـرة الى " المرحـاض " ويقصـه هنـاك في " المرحاض " . بهذا يبطل مفعول الاحلام ، ذلك ما قالته جدتي أطال الله عمرها .

*　　　　　　*　　　　　　*

أنـه ادار . نـوروز . عيـد الربيـع ، مسـاء الجمعـة الحـادي والعشـرون من ادار عـام سـبع وتسـعون وتسـعمائة بعـد الالـف ميلاديـة ، الحـادي عشـر ذو العقـدة عـام سـبعة عشـر واربعمائـة بعـد الالـف هجريـة . ارتـدينا ملابسـنا الجديدة ، أخذنا معنا البيض الملون والشموع والحناء والخـس . لا تسـتغربوا ، تلـك هي عـاداتنـا ... لاسـتقبال العام الجديد ، أصرت مريم على حمل البيض الملون ، ذهبنـا لزيـارة مقـام الخضـر ، مـريم تسـير أمامنـا بجانـب السـكة الحديديـة فـوق الجـادة الحصـباء ، أرعبني جمال عينيها السـاكنتين تماما والشـبيهتين تماما بشـكل عيني جدي عندما أكلني في الحلم ، وبهن الشبه نفسه

بعيون الجياد التي رسمناها على الجدران الامامية لاكاديمية الفنون الجميلة ، تسير مريم أمامنا لا مبالية ساكنة خلفها مباشرة جدتي ذات الثمانين عاما ونيف والتي شاهدت بأم عينيها أخذ رأس جدي من قبل الانكليز ، وهي نفسها التي جردت سيفه وابقته كل هذا الزمن مجردا من غمده حتى لحظة كتابتي هذه المروية ، أعقب جدتي بالسير عمتي أم مريم ، بعدها بخطوات قليلة يسرن أخواتها متهامسات ، خلفهن سرت تماما أنا حامي الحمى ، مشيت ملتهما الخس ، سرنا تباعا فوق ممر وحيد يتيم بجانب سكة القطار مرتفعة فوق كتف ترابي عال عن جانبين غارقين بالماء ، جميع زوار الخضر يسيرون بكثرة خلفنا وأمامنا وفوق السكة أسمع صوت اصطكاك عجلات قطار سريع ، صريرا قادما نحونا ، قادما صريره يسلخ صوته أرواحنا ، الضوضاء تتصاعد . تتصاعد ، الصوت قادم يتصاعد ، يتصاعد قادما ، يقترب . يقترب في دجنة الغسق القطار النازل من بغداد الى الجنوب خلفنا حضر مسرعا ، جاء بأقصى سرعته ، يخترق الصمت . الغسق . الغروب بصليل وصرير واصطكاك وصياح وبضجة ، المسافة بيني وبين مريم

والقطار طرية تجوسها عيني عندما وصل القطار خلفي صارت دمائي تفور كنت أسمعها تفور ، أسمع الدماء تفور حولي ، مريم تسير أمامي لا مبالية ، القطار خلفها وهي ساكنة ، تخطتني مقدمة ماكنة القطار ، الدماء تفور برائحة بدأت اتشممها وبعمق تماما ، تخطى أخواتها الستة ، شممت رائحة الدم الفائرة ، دم فائر يانع ، تخطى القطار أمها بعجلة وصخب وضجة ، الدماء فارت يانعة برائحة غامضة ، خلف جدتها وراءه ، وصل القطار أليها ، وهي لا مبالية ساكنة ساهية بسيرها أمامنا ندية نضره دافئة بجانب السكة الحديدية ، القطار – الان – عندها ، اللحظة كانت بالغة القصر في ذلك العصر الحار ، رمشة عين ، رمشة بين الغسق والغروب ، بين البرتقالي والقرنفلي ، بين الدم والظلمة ، بين القطار ورأسها ، ارتجفت ، فأنفجر داخلي بغضب أخرس عاجز ، طالها القطار المصنوع في انكلترا ومريم ساكنة لا مبالية ساهية . ليتها صرخت قبل أن يدهم رأسها القطار : واسباعياه .

كانت لا مبالية ساهية كونها لم تكن في ورطة ولم تعلم أنها في ورطة ، أختارها من بين مئات البنات الزائرات

لمقام الخضر اللائي لم يكن في ورطة مثلها ، فضلت الاندماج معهن ورمي ورطتها وراء ظهرها ، جاءها القطار من خلف ظهرها ، ضيقت عيني وجعا . أبصره يجري صوبها وبسرعة هائلة ،(خيول فائق حسن تجري مسرعة مع القطار، (والعاديات ضبحا * فالموريات قدحا * فالمغيرات صبحا * فأثرن به نقعا) ، صرخنا كلنا ، التقطت أذناي صوتا مكتوما ، لاثره ، تقلص وأنقبض ، أنقبض وتقلص قلبي ، سقطت عباءتها عن رأسها سائحة ، ماطرة جسدها المديد بشلال دم يانع قرنفلي أرجواني ، أرتفع رأس جدي عاليا لحظة ضرب رأس مريم لأثرها تناثر بيضها الملون وتشظى متكسرا فوق عباءتها وملابسها والارض ، دماؤها تطايرت تقافزت نابعة من رأسها ، مر القطار مسرعا ، صوت هائل كأنه طائرة نفاثة مرت فوق رأسي ، هرعت نظراتي وامسكتها ساندات ظهرها الطري . أسندتها . وانزلتها بهدوء تام فوق الارض الحصباء أحسست أن نفسي يضيق ما أن رمشت بعيني حتى كانت مريم ملقات على الارض سقطت من غير أن تصرخ ، الدم يشخب نازا بقوة على الحصباء ، تمالكت نفسي متحاملا على أرادتي وواجهة الموقف ،

انهـارت أحـد أركـان نظريـة عمتي أم مـريم ، انهـارت نظريتها في استئناس أبن اوى وأكل أبن اوى دجاجاتها ، دجاجـة بعـد أخرى ، وعمي يبعـد التهم عـن أبـن اوى ، ذلـك اخـر مـا باحـت لي بـه عمتي ونحـن نسـير بجانـب السـكة الحديديـة تجـاه مقـام الخضـر ، بهـذا انتصـر شـارون لأنـه وحـده مـن أخى بـين الـذئب والحمـل في قفـص واحـد ، هببت أليها ، أبعد عمتي وجـدتي اللتين خلفتهمـا بأنـدفاعتي ورائي تمسـكان بطـرف قميصـي ، انطلقنا بأقصى سرعة نملكها خلال المترين الفاصلين بيننا وبين مريم . أبصر تتابع مرور سرب العربات أثناء جريي ، أجده طويلا ينأى ليبتعد ، يبتعد لينأى . أكمل القطـار مـروره ، مـر مسـرعا تجـاه الافـق المنقسـم بـين الــدم والظلمــة ، ليــدخل بقــرص الشــمس قبــل أن تسقط وراء الافق . كان مقام الخضر مبنى عتيقا بقبة زمردية كالحة وسخة اللون ، تملأ جدرانها الغبر شقوق كثيــرة ، طويلـــة ومستعرضـــة ، تعشـــعش داخلهـــا موصوصـة خفـافيش مـذعورة ، تحـيط الضـريح قبـور دوارس لأطفـال دفنـوا حولـه بين أدغـال تتفـاوت ألـوانها بين الاخضر الادكن الطري ، والاخضر المصفر القاسي ، بـاب الضـريح مشـرع يغـص بـالزائرين وقـت الغسـق

الارجـواني ، وصـلنا حيـث وقعـت ، وقفنـا حولهـا ، انحنيت متقطع الانفاس عليها دون أن أفكر بأي شيء ، مريم مسجاة على ظهرها ، غطيتها ، سترتها بعباءتها ، القطار يمضي مسرعا غير عابئ ، تمنيت أن انقسم الى قسمين ، نصف يلحق بالقطار والاخر يضع رأسها في حضنه ، الشمس بأحمرارها القرنفلي الارجواني النئ أشبه بشمامة معلقة في أفق أرجواني دام نيء ، رفعتها من ابطيها لاضع رأسها في حجري ، أناغيها ، اهدهدها بين ذراعي مثل طفلة ، القطار يمضي سريعا وصليل عجلاته وصريرها يلمعان في ذلك الغروب الاذاري ، عدلت من وضع رأسها المهشمة بمحبة بالغة وثيرة ، وبدأت أهزها ، أهدهدها مثلما كانت أمها تناغيها يوم كانت بعد صغيرة ، دمها يشخب يانعا برائحة الليل ، يمـلأ الارض بـالاحمر القرنفلي ، القـاني ، الارجـواني ، تطلعت أليها ، ليس على وجهها أي تعبير فأيقنت أنها ميتـة ، أتنـاول وجههـا بـين يـدي الملطختـين بالـدم ، أشاهد في عينيها الميتتين الباردتين الصلدتين أنعكاس صورتي المتماثلتين لي عليهما تطالعاني بوحشية وبكأبة لا مبالية ... لا تجئ منهما نظرة متبادلة سوى انعكاس صورتي المتضاعفة المرتدة نحوي ... تلاحقني أصوات

حوافر البلقاء رامحة بعصبية ساخنة ، أخذت أمسح
بقع الدم اليانع وأقبلها ، أقبلها وأمسح ، أنطلى الافق
بلون الدم ، كأني اتذوقه ، كان مذاقه بادخا مترفا
ثريا يانعا مثل الليل ، أتذكر ابتسامتها لي يوم رسمت
على جبهتي حواجب كثة ، ابتسمت . ابتسمت ، كأنما
الموت كان يبتسم بعمق ، فعرفت مريم كيف ترد على
ابتسامته بأبتسامة أحلى منها وأكبر ، أغلقت عينيها ،
ببساطة ، وشيئا فشيئا تتثلج ابتسامتها الجميلة على
وجهها . عيناها تطالعان عيني ، بأسدالي جفنيها ،
أدركت أنها اغمضت عينيها على صورتي محتفظة بها
الى الابد ، السماء بدأت تكتسي مثل الارض بالاحمر
والقرنفلي الدموي ، غطت دماءها القانية القرنفلية
كل شيء ساعة الغروب فكان الغروب بلون الورد
القرنفلي ((فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان
)) وهكذا رحن جدتي ، عمتي ، وبنات عمي يبكين
ويلطمن ويشققن جيوبهن لاطمات بحرقة ، جاثيا
أندبها وسطهن ، أندب جدي ونفسي ، تجمع الناس
حولي : نسوة بأعمار مختلفة يشاركنني الندب والبكاء ،
انخرطت في بكاء عجيب حتى أن كتفي راحا يهتزان
بقوة ، سقطت قطرة ماء على خدها الايسر وتشظت ،

ثـم اعقبتهـا اثنتـان طريتـان تتقـاطران على وجنتيهـا اليسـرى ، تصـورت السـماء قـد بـدأت تمطـر ، مخطئ كعـادتي . أنـه بكـائي دمـوعي تتسـاقط عليهـا مقـبلات مودعـات ، الرجـال يتسـاءلون عمـا جـرى ، في ثـوان يسيرات استغرقتها في الصمت والخشوع ، انفصلت بها عـن النـاس كانـت حـالتي اشـبه بحالـة يزيـد بـن عبـد الملـك[٥]... رغـم أصـوات اللطـم والصـراخ واللغـط ، الشـابات يشـاركن بنـات عمي اللطـم ، ومـا هـي ألا هنيهـات حتـى راحـت اجسـادهن تتقـافز رؤوسـهن منفوشـت الشـعر تـنطح الهـواء السـاكن ، وتـدافع منـاكبهن بـدأ واضـحا مصـحوبا بأنصـفاق اردافهـن وارتـداد اثـدائهن المتـدافرة كل زوجـين يـتلاكمن فـوق حلبة جسد احداهن ، هام غسق شفقي يستر منابت اثـدائهن العاجيـة الهينـة الطيعـة ، مبـبلا لحمهـن الحي اللين الساخن برغوات زبدية ضوئية زعفرانية بحتة ، تنسـرب ظـلالا سـيالة تترقـرق بلالئ صـهباوات ذائبـة بفعل سخونة اللحم الانثوي الطافح بعري يقظ ومرير

---

[٥] كانت لدى عثمان بن سهل جارية تدعى " حبابه " التي اشتراها يزيد بن عبد الملك وعشقها وأنصرف أليها تاركا أمور الخلافة وقد تملكه الهوى حتى ماتت بين يديه وقد شرقت بحبة رمان ، فظل يحتضنها وقد غدت جيفه وثار الناس عليه وقتل .

. وجوههن يغطيها الغسق الدامي ، جسد مريم . الان . بارد تماما ، تماما بارد ، أمسك يدها اليسرى بيدي اليمنى ، كانت أصابعها باردة بالضبط جافة رخوة بالضبط تماما ، تألمت كثيرا وأنا أتذكر يوم كنا طلابا في مرحلة أولى فنون تشكيلية والفصل شتاءا والجو بارد جدا ، رأيت أصابعها ترتجف بوهن ، امسكتها مدفئا أياها براحة يدي ، قلت محاولا تنشيطها : في سن العاشرة كنت دائما الاول في المدرسة كما تعلمين ، فكانت ترد ضاحكة : وعندما أصبح نابليون في سنك كان امبراطورا . حينها تحسرت قائلا : نعم : أنا أمبراطور . أنا امبراطورك يا مريم .

نزلت دمعة ساخنة من عيني اليمنى منفلشة فوق خدها الايسر وأنا أتذكر ذلك ، رحت أشدد جثمانها المسجى الى صدري واضغطه بعمق ، شعرت بغصة خانقة تجتاح حلقي وتتحجر ، تتيبس داخله ، اغرورقت عيناي بالدموع متلالئة ثابتة ، لا هي ادبرت ولا هي اقبلت ، ولم أفلتها من أضمامتي ، ولم أجرؤ على التلفظ بأسمها ، شعرت بالرهبة والحزن ، وحزن ثقيل أصفر يعلو الوجوه المحيطة بجثمانها وبي ، وكأن

المتحلقــون حولنــا تحولــوا الى كتلــة واحــدة صــفراء متماســكة . صــفراء بلــون أدكــن صــلب كامــد بينمــا الفضـاء المحيط بهم كان أحمر مخيفـا يطلي الاشـياء بالـدم ويـوحي بـالموت . بحثـت عيـونهم عمـن ينقـذها ، تـدافع النـاس وهـم يركضـون في كل أتجـاه ، موجـاتهم مد وجـزر ، مـرت لحظات رهيبـة ، كنـت فيها معطلا ، في الجـو ضياء تجلـط متخثرا مثل دم دسـم خـط فـوق قبـة مقـام الخضـر . أرى شـموع الخضر تضيء ذؤاباتها متوهجـة بلـون الـدم ، دم مـريم المشـتعل بلظـى النـار ترسـم هـذه الشـموع ايماءاتهـا دمـا رسـى على جـدران الضـريح ظلالا واسـعات مرتجفـات بـوهن رهبـة ، فيمـا قفـص ضـريح الخضـر يتخضـب بطلائـع دم الشـموع والغـروب ، لفـت انتبـاهي بغـل يجـوس قبـور الاطفـال ببلادة ثقيلة ، بنات عمي طفقن ينعين ويعولن ، بزلت الظلمــة دم غروبهــا برهبــة وخشــوع ، ذكرنــي لــون الغــروب بلســان جــدتي ، الشــمس شــمامة كبيـرة ، شمامة ناضجة طفق يلجها القطار ، دخل بها في حالة من الشبق المتـوتر بدون توقـف . تـدريجيا . بلا انقطـاع كلـه ولجهـا ، ابتلعتـه عـن بكـرة أبيـه . انتشـت ، فهـوت بعـد بلوغـه الـذروة ، بعـد الـذروة انفصـل عنهـا القطـار

منهد في سيره المضني ، غادرها كليا منفصلا عنها ، غابت الشمس هابطة بضوئها الدموي خلف الافق المملؤ بالاحمر القاني ، فتشربنا كلنا بدماء الشمس .

*   *   *

حلت العتمة بلون أزرق عميق ، زرقاء بعمق ينزلق عليها بخفة قمر في محاقه يطل ناعم فضي زئبقي خشن بفضة وسخة دائب غير لامع ، ذكرني بسبطانة المدفع الخارجة عن جسد أخر عربات القطار الذي مر قبل بضعة دقائق ضاربا رأس مريم بعدما اجتازنا كلنا لأنها كانت الاطول بيننا ، لحظة ضربة سبطانة المدفع رأس مريم طار رأس جدي عاليا ، لتوي أدركت سر الشراكة في نظرة فائق حسن ونظرات خيوله ونظرات مريم وكانتا تقولانه عينا جدي ، شعرت بشعور فائق حسن عندما فقد جواد سليم ، ملأت حضني ضفيرة عمتي أم مريم وضفائر بنات عمي شقيقات مريم الست اللائي قطعن جدائلهن بسيف جدي الصديء الذي حملته معها جدتي ذات الثمانين عاما ونيف وهي تحرك لسانها الغسقي الزبرجدي الاحمر امرتهن بأعطائي جدائلهن ضفائرهن في حضني البغل اخترق

مقبرة الاطفال كلها . الان . البغل أمامي يحتل المكان ، يستحوذ على انتباهي كله ، اطالعه يهز ذيله ، يحركه جدلا طربا سعيدا لاهيا تماما ، ساكنا تماما وديعا بالضبط . ثقوا . لا أعرف من أتى به ؟ بالتأكيد لم يجلبه مخيالي الفقير . ابدأ . أنه قدري أن يهز ذيله ملخصا حياتي الشبيه بحياة زهور حسين التي كان نصيبها الرقص . فقط .

مومياء البهلول

اذا كان عدد ايام شهري رمضان و شعبان ثلاثين يوماً ، تصحبها رياح شرقية ، ستظهر عربة يجرها حماران رماديان كل منهما بأذنين مقطوعتين تقودها امرأة من يتبعها يجد الخلاص ٠ / هذا ما قاله البهلول/

نبوءة تغرغرت في حلق ذئب ٠٠
حصار الذئاب في اتساعهِ ،رياح شرقية وأدت مدينة . ليلاً ٠ صوت ذئاب تعوي ، عواؤها حاصرنا ، أمس. أوّل أمس . قبل عام ،منذ سبعِ سنوات والبهلول ممسكٌ بندقيةِ محشوةً ٠ أرث أسلافه ٠ لكن ! لا

أصابع تضغط على الزناد . فقط عيونٌ ترقب الذئب و الزناد . الزناد و ذئابٌ تعوي . عواؤها صار : شواهد . دلالات . أمكنة . حضارات ، وحصارات تجري داخل قوقعة الروح الأبدية : أجسادونا . أقدامنا تطأ تراب الحصار ، بخبطات عارفة ، كمطارق الحدادين تعرف طرق الحديد وهو ساخن ، وجوه احفاد البهلول تدار ناحية امرأة تقود عربة خشبية يجرها حماران رماديان كل منهما بأذنين مبتورتين ، تعلن عن بضاعتها منادية ً :-

- تعويذة ضد الذئاب .

جلس البهلول و بجانبهِ حفيده (*أمارجي*)[6] على دكةِ السنة الثامنةِ للحصار يرقبانها تصيح :-

- بلسم يقيكم شر الحصار .

في خلخة العربة المتخمة بصرير عجلاتها تندفع قعقعتها سارحةً في ألمٍ حديدي قاسٍ يوخز صوت رنينه

المشروخ آذانهم ، تنطفئ ملامحهم و هم يشاهدونها تعرض بضاعتها معرفةً :-

---

([6]) أمارجي :- اله الحرب لدى السومريين

- شرابٌ يمنح الثراء ، العافية ،الراحة، القوة ، و يطيل العمر ٠

تقيأتْ العربةَ صراخها الحديدي صديداً سكن العيون المنثورة على أرصفةِ المدينةِ ، العيون لينّة ٠ فاترة تقافزت أجفانها النحاسية كرتاجات صدئة ٠ قفلت اندهاشاً ، فتساقط عجبها نحاساً بارداً هشاً فوق عتبات المحلات التجارية ، تسأل :-

- لقد مللنا سماع الأباطيل ٠ مللنا ٠

ساحتْ الشَّمس كخريفٍ رممَّ رتوق جسده بصباحات متسولة أخذتْ تتثاءب بأسنان ذهبية استوطنتها بلازما خريفية مائعة كجسد حلزون ، سحبتْ لجاميّ حماريها بغلظة ، توقفتْ العربة ، ترنمتْ :-

-بلسم شاف لمرضى الحصار ، جرعةٌ واحدةٌ تقيكم برد الشتاء ٠ جرعتان تمنعان عنكم الجوع، ... ثمان جرعات تُكسَّر الألم داخلكم ، ٠٠٠ عشر جرعات تمنحكم قوة مئة فارس ٠

شهق أحدهم متسائلاً :-

- و ماذا ٠٠٠ نصنع ٠٠٠ بهذه القوة ؟

قالتْ بحماسٍ :-

- بإمكان المحاصر كَسْر عنق عشرة ذئاب دفعةً واحدةً .

و هي تكلمهم بانتْ شحمة أذنها اليمنى مشروخة من خلفِ عباءتها الغبارية المنفرشة بلدونة عجين سائح بينما تكدستْ على طياتها ذؤابات ملحية عريضة ، جادلوها :-

- كوننا نعيش حصار الذئاب تكذبين علينا بزقومكِ هذا .

نعتها مشعوذٌ بجبهة خالية من الحاجبين :-

- محتالة .

قال اخر :-

- دجالة

عجوزٌ تصاصيء بصوت فأري :-

- ساحرة .

مطّتْ شفتيها الزرقاوين برعب مستتر خلف متاريس دهشتها ، قالتْ مستاءة :-

- جربوا البلسم. فقط جربوه .

- استمروا . فقط .استمروا ضائعين .

قالها البهلول بانكسارٍ من على عتبة الحصار وسط شوارع مدينة غرقتْ بلعابٍ كاكي كالمهل انساب من

شــدقي ثــورٍ مجــنح حوصــر مــن الوريــدِ الى الوريــدِ بسكاكين قرمزيـة . تغرغـر الأحفـاد بالمهـل . ازدردوه . إلاَّ البهلول بصقه متسائلاً :-

- أتبيعين أحلاماً يامرأة ؟

عيناهـا تشـعان صـمتاً قـديماً بـارداً هلاميـاً كمـح بيضـة اليربـوع ، تنظران صوب بلدة الغبار و الزقـوم ، تدحـرج صوتها متاخياً مع هرجهم :-

- كنْ أولَ من يجرب البلسم يا بهلول .

تكفنــتْ طرقــات البلــدة بريــاح شــرقية أغــرتْ حمــار الطاحونة على الدورانِ و عيناه خرزتان تدمعان لعاباً شــطف تــروس المطحنــة نفســها التي هرســتْ أصــابع البهلــول ، و البهلــول دون كيشــوت الحــرب ، لــوّح بقبضتين خاليتين من الأصابع للمرأة أن :

/ كيف يتناول بلسمها ؟ / .

سـقطت بندقيتـه على الارض مقمطـة بصـدئها .بهـت ناعقاً :-

-بندقيتي ! بندقيتي !!

بندقيتــه : عــزاءة و خيبتــه . محشــوةٌ أبــداً و جــاهزةٌ للإطلاق دائماً .

- ياه . صار الوقت للأنياب و ليس للأصابع .

قالها خائباً بعدما كنس أحفاده بنظرة ... تأمره هادئة
:-
-امسك بندقيتك الصدئة من المنتصف .
- قروننا من طين .
/ يتندر البهلول مأزوماً /
تمازحه :-
- و بندقيتك كذلك .
استعرتْ أرصفة الترقب بضحكات مجلجلة أحرقتْ قلب المدينة ، ضخ القلب في شرايينها سيلاً بشرياً متعباً .
انهم دم الشارع ، فأنسكبوا كعصير زقومي تدفق من ساعة رمليةٍ مثلومةٍ ، تململ الحماران الترابيان لهطول
دم الشارع بين حوافرهما أرتجَّ بطناهما الأبيضان بلدونة طيعّة أثر حراك قوائمهما كمن يؤدي تمريناً عسكرياً
، نادتْ :-
- تعويذة تقيكم شرَّ الذئاب .
أجفان أحفاده ِشمعّية ثقيلة بزرقةٍ نيلية تنفرش عائمةً حول العربةِ ، أكد البهلول :.

- تعويذتكم بندقية !

أرثـك بندقيـةٌ متأَبـدة بـلاَ انتصـارات ، بـلا هـزائم . صـدئة . لاتطلـق الرصـاص ، مشـهورة بوجـه تظـاهرةً اعتصـمتْ فيهـا غيـوم لولبيـة تكاثفـتْ حـول عـرش المدينـة بهشاشـة غبارية حـادة وموجعـة كنـابي ذئـب، كـون الـذئب بندقيـة مصـوبة نحـو القلـب ، والقلـب مدينة ، والمدينة فتاة انتهكتْ عذريتها . لِمَ البندقية ، وعَـلاَمَ العبـث مـع الـذئب ؟إذن لتـنم كـل البنـادق محشـوةً برصاصـها يـا بهلـول . تنـام عاريـة ، يتنـاوب جنود الصدأ في وطئها ، هدرتْ:

-أنا أم الحصار اقتلّعتُ أنيابه عنكم .

باعـد أحـد الحمـارين قائمتيـة الخلفيتـين ، فتلقـفتْ الأرض العكـرة شـلال بولـهِ السـاخن ، تـوزع صـدى انصبابه مزروعاً بجسدِ الشارعِ ، قالتْ :

- سن الذئب تعويذتكم ضد حصار الذئب .

-.................................. / لاجواب من المحاصرين/

- لاذئب بعد اليوم .

- ..../ ولا نأمة/

- دعوا أحفاد البلهلول يلهون قرب البئر.

- ..../ لا. خرساء قصيرة يتيمة /

♦ ♦ ♦

- إني اسمع نبض الحصار./ هذا ما قاله البلهلول/

♦ ♦ ♦

- اطلبوا تعويذتكم ، ما حاجتكم للبنادق ؟ / قالتها بثقة /

ذرّتْ الشمّس حفنات ضوءها فوق المدينة التي تقلّد أبناءها/ سن الذئب / تعويذتكم الجديدة .

- خرجنا من الحصار لندخل في حصار أخر.

/ صرخ البلهول / بعدما أتكأ على أرثِ أسلافهِ/ بندقيته/. فوجئوا بكَمٍّ هائل من أنياب الذئاب ، سألوا :-

- أنىّ لكِ أنياب الذئاب ؟

أجابتْ :-

. أوقعتها في الفخ !

الأرصفةُ موشومةٌ بأفواه مفغورة دهشةً ، استطردتْ :.

ـ وضـعتْ لهـا ثمـار الزقـوم في البحيرةِ . شـربتْ منهـا ، فتساقطت أنيابها .

دواليب الغبار دعستْ النفوس فتركتها مجرد فزاعات ، قالتْ بتسلطٍ :.

. لاذئب بعد اليوم .

ظـلال الفزاعــات طويلــة . رفيعــة . باهتــة . جهــرت بكلمات ناشفة :.

. انتم الان امنون .

الغبار مظلةٌ كاكية تعوي بفيئها الذئاب ، بلا أنياب . تساقطتْ أنيابها . ناب اثر ناب ، كانكشاف لعبةٌ بعد لعبة، بذلك اصبح الاقتراب من أوكارها يعني : الان! عظمتين قذرتين تغطيان جمجمةٌ خجلةٌ بلا أنياب .

تقدمتْ طفلة بجديلتين سوداوين من العربةِ ، رحبتْ أم الحصار :.

. أهلاً بحواء الصغيرة .

حـواء ، دائمـاً ، حـواء الأولى . السبّاقة لقضـم تفاحـة النار ، سالتها :-

. ما اسمك ياحلوة ؟

أجابتها :.

. هند.

أهدتها جرعةٌ من بلسمها قائلةً :.
ـ ستكونين أوَلَ طفلة لنْ تطالها الأنياب . أنت الآن آمنة .
شمرَّتْ عن ساعديها فظهر وشمٌ بحروف زرق داكنة كبيرة مغزولةٌ فوق ساعدها الأيمن : أم الحصار.
بعدما حَزَمتْ وسطها بعباءتها راحتْ تمنح حلواها السحرية مقابل وزنها ذهباً . تزنها بميزان إلكتروني حساس ذي كفةٍ واحدةٍ . كيف والميزان أنفق عمره بكفتين ؟
دائما كفتان ، في كل كلفةٍ توزن جنة ونار. النفط مقابل الغذاء . حب وكراهية ، الأرض مقابل السلام، اصلي ومزيف . البندقية مقابل التعويذة . ياه . كدت أنسى : الأمان مقابل الصمت ، خير وشر. سألها جدنا البلهول :.
. مم صنعتِ بلسمك ؟
علقتْ:.
.***(من عصارة مسحوق قرن الخرتيت)*** [١]

♦ ♦ ♦

[١] خرافة تقول : لو سحق قرن وحيد القرن وشرب نقيعه فأنه يطيل العمر .

البلـدة أرخبيـل الزقـوم... أنبتّـتْ أرضـها الزقـوم والأحفـاد ، والأحفـاد موكـب نمـل كَـرَعَ قـدور المهـل الكبيرة تجرعـوه . التهبتْ أجسـادهم السـمر الطيّعـة . توجعـوا . انبعثتْ من مناخرهم اللدنـة زفـرات وبائيـة خبيثة .

/ دارتْ الـرؤوس / . الجسـد إلى الأمـامِ والـرأس إلى الخلـفِ ، لـو عكسـتْ قلبـتْ ، والعكـس صـحيح ، يتساءلون :

/عَمّ يتسـاءلون / . أعـن التي دارتْ رؤوسـهم ؟ سـألها البهلول شاهقاً:-

. لمَ أدرتِ رؤوس أحفادي ؟

أجابتْ :.

. /كبيرهم حطمهم/ .

روائـح كريهـة مضـمخة بعفونـة القـار تنبعـث بلهبـة وحشـية حارقـة نفثتها منـاخر أبنـاء البلـدة المسـتغيثين بهستريا:.

. أينْ أسرافيل ؟

. تحملوا حصاركم بكبرياء ./ هذا ما قاله البهلول /.

المعوذون زعقوا :.

- أيها الحصار متى تنتهي ؟

حمار الطاحونة يدور حول محور ثابت ، يظل يدور حتى ينفق . وحدة خارج لعبة الكفتين . على عتبةِ المطحنة تفقد أمارجي عباءته ، تمتم بانكسار :.

. ان ليّ ان أطوي عباءتي وأمضي .

أمره جده بحزم :.

. اجلس .

أحفاد البهلول المنطرحون أمامه في أنفساح الأرض ، كلهم من البهلول ، والبهلول من ادم ، وادم لم يكنْ ذئباً كان تراب فوق كفة الميزان منذوراّ لموازنته . صعودًا ونزولاً يجلو ما تعكز بذراعيه من أشنات الحصار ، صدحَ جدنا البهلول :.

. أوئدوا حصاركم . أقبروه .

زناخة أنفسهم أطفأتها عينا الحمارين ، هّش الحمار الأيسر بذيله طارداً كومة ذباب طنان تجمعتْ عند مؤخرتهِ ، نخر الحمار الأيمن بشدة . هّش الأيسر ثانيةً بذيله أصاب مؤخرة الحمار الأيمن ، تحركتْ العربة تشق سحباً قطنية مدماة تسف خلفها روائح بخارية زنخة أنشأت حصاراً أميبياً خبيثاً ، قذفتْ أم الحصار قدورها الكبيرة . نقعتْ الأرض . راحتْ

تحتسي أنسياحات القاراللاهثة بجانب العربةِ ، واطات عجيزتها خشب العربةِ المتشقق ٠٠٠/ وكشفتْ عن ساقيها٠٠٠/ ذاتي القدمين المحناتين بسخام قدورها ، هَدَرتْ :-

- مَنْ أراد منكم الخلاص فليتبعني ؟!!

تساءلوا :-

-إلى اينْ؟

جهرتْ:-

-الى لارسا .

تسألوا مستغربين :-

- وهل الخلاص موجود في لارسا ؟

الأرض حبلى . تلد الزقوم وآذاناً بشرية تصيخ السمع لتساؤلات سكان القبور :-

- متى تنفخ في الصور يا أسرافيل ؟

لا جواب . المنذرون برؤوسهم المداراة صيوانات رادارية تنتظر التقاط زفير أسرافيل . نفخة الولادة تعقبها صرخة البداية . لكن ! النفخ في الصور حكاية تناقلتها الأجيال . تساءل الأحفاد :-

- يا جدنا . هل صحيح أن الخلاص في الذهاب إلى لارسا؟!

لا جواب . تساءلوا :-

- أينْ حكمتك يا جدنا ؟

لا جواب.تساءلوا:-

- أشر علينا نحنْ أسلافك ؟

تمتم مرغماً :-

- لارسا سراب .

جاروا :-

- انفخ في الصور يا أسرافيل .

والنفخ في الصور حكاية عرج بها الأسلاف ناحية الجهات الأربع . أنّى تولي وجهك فثمة حصار. الأسلاف . يشاهدون الجهات الأربع تطلق جدهم عاريا . البهلول دون كيشوت الحصار عارٍ. يستر عريه برصاصة مرقطة والرصاصة أنثى . مَنْ يستر نفسه ببندقية ؟ مَنْ ؟!

أبى البهلول ستر عريه بأنثى كاكية . كونه بلا أصابع . بادرهم متألماً :-

- عذراً يا أحفادي ! لقد أورثتكم بندقية صدئة .

قاطعتهُ :-

- مَنْ ذَهَبَ إلى لارسا فهو آمن.

سألها البهلول :-

- والذئاب ؟

قالتْ :-

- الذئاب في رأسك يابهلول ! في رأسك .

تكلم :-

-سآخذ بندقيتي معي إلى لارسا .

صاحتْ :-

-كل من دخل لارسا فهو آمن .

قال متخوفاً:-

-لكن ! الخروف بلا بندقية لايساوي ذئباً .

قاطعتهُ :-

-الذئب يسكنك أبداً يابهلولنا .

أعترف :-

- الخوف ظلي .

نطقتْ :-

- ياه . دعني أكون ظلك ؟!

كانتْ العربة تسير باهتزازات تخلخل أم الحصار في جلستها ، تصوب بصرها ناحية القواقع البشرية التي تنفث زفيراً عمره ثمان سنوات ، نادتْ :-

- مَنْ أراد الفوز فليتبعني ؟

♦ ♦ ♦

- لنْ نصل إلى لارسا ... لارسا سراب / همس البهلول في أذن حفيده أمارجي/.

♦ ♦ ♦

مزقتْ مومياء الغروب كفنها النحاسي ، درّعْت قوقعته الضوئية ، لطعتْ بلسانها القرمزي وشاح السماء . أحترقتْ بنيران لازوردية ، رمتْ قماطها المشتعل بعيداً ، كطفل شره تعلق مومياء الظلمة جؤجؤ السماء، من بعيد ظهرتْ بنات نعش يحملن رفوشهن ، تراجع أمارجي مخطوف اللون يسأل جده :-

- لِمَ بنات نعش يمسكن رفوشهن ؟

أجابه كدراً :-

- يحفرنّ قبراً .

سأل بأندهاشٍ :-

-لِمَنٌ ؟

وأدتْ بنـات نعـش جثمـان الشَّـمس . أهالـتْ موميـاء الغروب قار ظلمتها الأسود منسكباً فوق رفاتها . بدأتْ مساءات الحصار يطلقنّ عـزاءهن / إحـدى وعشـرون أنثى / يسـترن واحـداً وعشـرين حفيـداً. آنئـذ . أقـامَ البهلول صلاة الميت . رتل متنبئاً :-

-عودوا ! حتى في لارسا حضنا عاثر . عودوا !

(*الكواصد*) [1] موشومون على مومياء الطريق متخذين شكل يأجوج ومأجوج برؤوس مدارة . الأطفال شرانق مشدودة إلى جذوع أمهاتهم بلا لغوٍ أو صراخ يسيرون بأمتدادات ترابية ومتطامنة ، نادى فيهم البهلول:-

-تعويذة للذاهبين إلى لارسا .

سأل أمارجي :-

-ماهي ؟

مّد النمل ارتقى أرث الأجداد أجابه بعدما سلمها لـهُ :-

-بندقية .

صهلتْ أم الحصار:-

-أصمت !

---

[1] الكواصد : وهم من عامة الناس يذهبون إلى أصرحة الأئمة ليؤدوا نذورهم وهم يحملون الرايات أثناء سيرهم ألطقسي .

سألها :-

-وحكمتي ماذا اصنع بها ؟

رعدتْ :-

-قل حكمتك وأمضِ..

جاءتها حكمتــهُ محشــوةً في أرثِ الأجــدادِ : ضــغط أمارجي على الزنادِ ، أطلق قرن الطين أناثْ رصاصته / إحــدى وعشــرون زقوماً / جنــدل واحــداً وعشــرين ذئباً وحواءٌ واحدةٌ./***هذا مالم يقله البهلول*** /.

وساخات آدم

والعصر ..

زمن عقاربه مدٌ وجزر . طرقات . دقي يا ساعةً أخّرت في توقيتها . دقي . أعلني توقف آدم عن السير. طرقات . أيادٍ ملطخة بالأوساخ ، تسأل :- هل عندكم نفايات ؟ آدم يسير شرقاً أو غرباً . خطواته حائرة ، دفعته شمسٌ غيورة ، لفه ليل ملغوم بالصمت ، صمت مدن تنتظر المخاض ، وأخرى حبلى باليأس ، شمالاً أو جنوباً ، حركاته مذعورة ، جمدّتها مدنٌ أدمنت قضم الثلج بأسنانٍ ضاجعها الدم ملهوفاً . فابتلعته مدن عارية تستحم بدفء الشمَّس على شطآن عذراء .
بلا توقف . مدٌ وجزر خطوات آدم . أكف وسخة بأصابع مبتورة ، تمتد ، تسأل :-

-ضريبة جمع القمامة ...؟!

* * *

صبي متسول يقتلع أسنانه ، تقطر دماً ، يرميها بوجه الشَّمس ، قائلاً :-

(*خذي سن الحمار، أعطيني سن الغزال*)[1]

*   *   *

شمس الغروب جريحةً ، تتعكز على غيمتين فضيتين كجريح يعود من الحربِ ، ضماداتها غيمات حمر ، جامع قمامة ينادي :- قمامة للبيع... نفايات للبيع ... سكراب للبيع !!!

انحنت الشَّمس مظهرةً عجيزتها الملطخة بالدم...

آهٍ... يا زمن الدم ؟!

شرع آدم يلطخ رؤوس تلال النفايات بدمِ الشَّمس ، بدتْ كأحشاء المناجم المنزوعة من بطنِ الآرض. لافتة تقول:- من النفايات سنبني حضارتنا .

عجباً !

---

[1] خذي سن الحمار وأعطيني سن الغزال :- اعتقاد شعبي في العراق حيث يرمي الأطفال الذين تسقط اسنانهم بوجه الشمس يرددون المقولة السابقة ، أي انهم يرمون سن الحمار القبيحة كي تعطيهم سن الغزال الجميلة .

أكـوام قمامـة تفـوح عفونـة ، متسـولون ، هياكـل سـيارات محطمـة كـلاب تقضـم بكسـل ، صـفائح ، سكاكين مكسـورة ، زبـالون ، فكـوك حيوانيـة بأسـنان دئبية ، وآدم يلهو بعصا ينكأ جرح الشَّمس ، هدر دمها مجتاحاً لافتة تقول :-

- مرحباً بكم في مجمعِ النفايات .

تحجل الشَّمس متعبةٌ نحو الغروب ، أحمر داكن دم الشفق ، انحني آدم ملتقطاً حمالات صدر نسائية ، قال :-

- يا الهي ! حتى مشدات الهنود تهجر موطنها .

أمسكته أيادٍ قاسية ، التفت ، جامعوا نفايات يلوّحون بأيديهم يفتحون أفواههم ويهزون رؤوسهم قائلين :-

- دعها ! فأنك لست من سلآلتنا .

قال :- لكنها نفايات .

ماءت الأفواه :-

- إنسان استهلاكي !

عوت الأفواه:-

-إنسان العلب الكرتونية !!

نظر وجه المساء بعين واحدة .قمرٌ. قطرة زئبق انزلقت فوق شعر الليل خرج أنصار الحفاظ على النفايات يطرقون براميل الأوساخ ((*كأبي طبيلة*)) [1] ، يصيحون -:

-عجلوا ... عجلوا... سنسبق الحضارة .

مأخوذاً بمشاهداته ، كمن نفسه وسط بركة تماسيح جائعة لا تهادن ، تمتم :-

-جامعوا قاذورات يبنون حضارة ؟!

عاصفة غضب ، ولدت من صدور أضلاعها شمعية بداخلها حيوانات هلامية تنفث حقداً ودناءةً . مرغته العاصفة بوحل أسود ، زعق :-

-مجانين ! دائماً ضحاياكم فقراء .

---

[1] أبي طبيلة :- شخص يوقظ الصائمين وقت السحر .في شهر رمضان . وذلك بضربه على الطبل قائلاً ((سحور يا صائمين)).

اختبأ القمر خلف شجرة سدر يابسة ، ضخمة ، عارية . جاءه صوت سريع كحاصدة زراعية ميكانيكية :-

-مَنْ يسرق نفاياتنا ... يموت حرقاً ؟!

* * *

الصبي المتسول مستمر بقلع أضراسه ، بدمها ، تنتظر ظهور شمس كريمة .

* * *

قمامة ومتسولون .

ليل المدينة ثقيل كالقار ، ساعاته تتكتك بفوضى وألم ، جرذان رمادية كبيرة ، تقرض مثل ساعات الزمن برتابة مقززة ، تدق ، تقرض، تتكتك ، تقرض ، زمن لا يتوقف . كآدم السائر أبداً ! زحف صوته متخبطاً في قاذوراتِ المدينةِ :-

-أشقياء ! نصيبكم الموت .

نهض ، بدا كنصب شهيد . لكن ! بدماءٍ حقيقيةٍ ، دار حول نفسه كالأرض ، ضحكاتهم مواء قطط بردانه ، تساءَل مقهوراً :-

- عَلامَ تضحكون ؟

كضجيج شارع مزدحم بمنبهات السيارات ، حاداً مزعجاً جاءه صوت مناصرو الأوساخ ، ملأ الفراغ ، سكن الصمت بعواء غابي ... بلا ملامح... كدقات ساعة قديمة ... لا تتوقف تكتكاتها نبضات الزمن النائم ، قال أحدهم :-

- كل مَنْ يسرق نفاياتنا يحرق !

قال آخر:-

-كل مَنْ يطأها بقدمه ، خائن !!

صوت بعيد :-

-كل مَنْ لا يدفع ضريبة جمعها ، يرجم بها حتى الموت !!!

صوت:-

-كل مَنْ ------------

صوت آخر:-

-كل -------------

ركلة حاقدة ، بصق أسنانه كتظاهرة احتجاجية تظاهر فيها دمه ولعابه ، احتج معهم صبي وزئبق فضي ، أطل فوق التظاهرة . بكى . دموع ضمائرها ذكريات ، حشرج صوته :-

-آه . . . آه . . . آ . . . ء . . . ء . . .

*   *   *

صفعة ويد .

يد وصفعة أطفأت عينيه ، مجموعة ألوان ، صارت رماداً ، لون واحد ، لم يعد هنالك أسود ولا حتى أبيض ، صرصار رمادي يجري هارباً داخل قنينة البيبسي كولا .

*   *   *

مسرح الآهات يشهد رقصة : زمن البراءة !

رُفِعَ الستار ، تظاهرت ، لافتات ، مخلوقات لا مرئية ، ترقص خلف تلال النفايات ، لافتة بمصابيح نيونية تقول :- ندوس الزهور بأحذية قديمة !!!

? ? ?

برتقالـةٌ كبيـرةٌ كُتِـبَ عليهـا :- ((حـافظ على نظافـة مدينتك)).

بداخلها :/ نساء يهجرن أطفال الزنا ، رشاوي ، ضمائر ميتـة ، ممارسـات جنسـية ، كـلاب تقضـي حاجتهـا ، وخلف كومة من سكراب آليات الحرب . صبي . يقتلع أضراسه بـ.............. طلقة صدئه!

* * *

مدٌ وجزر .

أقـدام آدم تطـوي دلتـا الشـرق وصحراء الغـرب . مـدٌ وجـزر . الـزمن لـنْ يتوقـف ! عقاربـه دائـرة مـن جبـالِ الجليـدِ إلى خـطِ الأسـتواءِ . لكـن ! الـزمن لايـؤوب ، واليوم أقدامه في القمامةِ .. هه.. يازمن الهزائم !

مجانين نفايات . زعق ، خبطة عنيفة عيناه محمولتين داخـل نعـش مـن دمـوعٍ رماديـةٍ ، وقـع نبضـات بنزين يضـخها قلـب صـفيحة عسـكرية ، اسـتحمت عينـاه بـرؤى راقصـات الباليـه يتسـلقن عتبـات الظلمـة ،

رشـيقات ملائكيـات ، يرسـمن أحلامـا وآلامـا ، كبريـاء وحـزن ، هـزائم وضـمائر معذبـة . أشـعلن القمـر بنيـران لهيبهـا دم أحمـر / خسـف القمـر / صـار كبـداً ، ذعـر المحتشـدون ، أشـاروا بأيـادٍ ميتـورةٍ :- يـا الله . القمـر مصبوغ بالدم !

أغمض العالم عينيه كمؤمن يواصل تسابيحه ، أذناه تنصتان :- حان الوقت .

تسمعان :- توبوا .

اختلطت الأصوات :- ماذا صنعنا ؟

- هزمنا .

....

- أين حروبنا ؟

....

- توبوا .

...

- ماهي خطيئتنا ؟

......

- الولادة .

ندّت عن آدم زئرة حبيسة :-

- حفاة ! أعلنوا هزيمتكم .

حشرجات عديدة :-

- أأأ٠٠٠ح ح ح ٠٠٠ ررر٠٠٠ ق ق ق ٠٠٠ ووو ٠٠٠ هـ هـ هـ .

صوتٌ لجوج يأمر:-

- أحرقوه !

انطلق لسنا النار يلعق جسد آدم مثل قطة تلعق جسدها بلسانها ٠٠٠ آهِ٠٠٠ يا أدم آهٍ ٠٠ يا أدم ٠٠٠

/إنّ الإنسان لَفي خُسرٍ/.

نارٌ وموت .

موت ونار. اجتاح الحشد فرح مجنون . اضطرب ، ماد ، تدحرج آدم ، وفر هارباً ، امتدت النيران تأكل أكوام القمامة (الأرض وحدها تصلي / صلاة الخسوف / المتسولون يتضرعون : ((***ياحوته هديه.. هديه .. هذا أعور شلج بيه***)) [1]

---

[1] ياحوته هديه .. هديه .. هذا أعور شلج بيه :- هناك اعتقاد شعبي في العراق مفاده عند خسوف القمر فأن حوتاً يبتلع القمر ، فيدق الناس على الأواني المعدنية كي يطردوا الحوت ليترك قمرهم المخسوف وهم يرددون المقولة السابقة .

*   *   *

شجرة السدر تحترق . تحتها . أتم الصبي قلع آخر أضراسه ، واحترق .

وتبقى قطام..!!!

١٤١٩ هـ

الجمعة : السابع والعشرين من رمضان .

الساعة : الثانية عشرة وخمس دقائق رُفع آذان الظهر احتياطاً قبل خمس دقائق .

قطام هي التي سمعتْ :-

- لا . . .

رافضة ، مستقرة ، تردد صداها طويلاً ناهياً خشناً :-

- لا . . . لا . . .

كانت قاسية ، حادة ، عريضة النهاية اخترقتْ مسامع النسوة ، ثقيلة كالحجر الذي وُضِعَ فوق صدر بلال :-

- لا . . . لا . . . لا . . .

أقعتْ أمام باب المسجد ، بلا ظل ، قبضتاها تعتصران تراب الكراهية تحت شجرة اللبلاب ، عباءتها طافية خلفها تدثر خطواتها ، عيناها حادتان تحاولان إمساك كلمات المصلين ، زجرتْ خطيب الجمعة :-

- أتظن بأني لا أسمع لآتك ؟

ردد المصلين :-

- /. . . ***وَلاَ الضَّالِّين*** /.

- انفعلتْ :-

- اني . . . اسمع. . . !

انفلشتْ ذرات الرمل هاربةً من اعتصارِ قبضتها ، أعلنتْ :-

- سأحظى بمهرٍ غالٍ .

جاءها صوت المصلين قاطعاً كالرمح الذي خبأته هند فأصاب أسد الله :-

- لا. . . لا. . . لا للفسفور .

لون وجهها بقعتهُ زرقةٌ نيليةٌ ، أغمضتْ عينيها تحتبس الألم ، تحسرتْ متسائلة :-

-مَنْ يرفع عنا هذا الوقف ؟ مَنْ ؟!

النسون المصليات احتشدنَّ حولها مندهشات عندما خلعتْ عباءتها ، فتحرر منها قبّاض الأرواح الذي قطنها زمناً ، أسفرتْ عن جيدٍ علقتْ عليه حبلاً رفيعاً من البريسمِ تتطاوح مندلقةً منه دمى . دمى منسكبة على متنها الأيمن بهيئات بلاستيكية لمنافقين ، قماشية متخذةً أشكالاً نسويةً شهيرةً وصوفية لجنود بزي الأسر ، ودمىً ورقية تخندقتْ فوق متنها الأيسر لقّواد حربيين ، دمىً مطاطية غليظة لرجال دين ، وأخرى حديدية لأطفال بعيون كالنطف باردةٌ ورخية .
نظرتْ قطام باتجاه الشمس بعينين نصف مغمضتين ، ثم بعينين مفتوحتين صوب ظلها ، رأتْ جسدها بلا ظل ، حاولتْ فرش ظلها على جدارِ المسجدِ . لا ظل فقط جدارٌ أبيضٌ وظلٌ رمادي مزرق ترشح من شجرة اللبلاب ، تطلعتْ ناحية المصليات بعينين ناريتين آمرتين بعدها تفوهتْ بكلمتين متمردتين :-

- انزعنَّ عباءاتكنَّ :-
- ....

صمتٌ محايدٌ شكل متاهة ، واسعاً مثل صحراء الجزيرة ، صار مرآةً تكسرتْ بكلمتينِ جرانيتيتينِ آمرتينِ :-

- انزعنَّ عباءاتكنَّ .

استمر الصمتُ محايداً غير منحاز لنداءات قطام :-

- اخلعنَ قيد عبوديتكنَّ .

علّقتْ إحدى المصليات باندهاشٍ :-

- والنداء ...!

/مداخلة واقعية/ خلف حشد المصليات رجلٌ مربوع القامة يندلقُ من عينيهِ الحمراوين غضبٌ ساخن . عنوةً كرعتْ زوجته قنينةً مملوءةً بالبنزين ، ضغط على زنادِ قداحتهِ فكانت النار ما رأته قطام .

انفجرتْ :-

- أرأيتنَّ . الرجال لا يعرفون إقامة العدل؟!

أعادتْ المصلية سؤالها :-

- والنداء ..!؟

قالتْ:-

- كيف ترتضين أن يعاشرك رجلٌ لا يعرف القسط ؟

آخر الدواء الكي ، وآخر الصمت عود ثقاب مشتعل رمتهُ قطام ، فأحرق عباءتها ، بدتْ عيناها لسوداوان ملطختين بالنارِ وشفتاها تلمعان في مسّرة ، تمردتْ قائلةً :-

- انزعنَ عباءاتكنَّ وارمينها في النار.

أغاضها سكوتهنَّ :-

- النار تحتاج . دائما إلى حطب...

قاطعتها أم برفقتها فتاتان بسنِ الزواجِ :-

- وهل كان الستر يوماً حطبها ؟!!!

قطام هي التي رأتْ دسَّ إصبعها في جرحِ حواء الأبدي : العصيان .

ذلك الجرح الذي حملنه عن أمهنَّ حواء ، فكنَّ يعيشَّ في المنطقةِ الآمنةِ : أطاعت الرجل ، في العتمةِ ، في

السترِ ، الآن٠٠ صرن يعشن في المناطقِ المحرمةِ تلك المناطق التي يضيئها العصيان .

قالتْ :-

- كنا طوال حياتنا وقفاً للرجال .

عجوزٌ درداء من خلفِ كومة فجل تتساءل :

- ما الذي نجنيه من حرقِ عباءاتنا ؟

قالتْ :-

- الحرية ! ستكون لنْا حريتنا !!

معلمة تربية إسلامية تفوهتْ بدهاءٍ :-

- لنحفظ بعباءاتنا لليومِ الأسودِ ما دمنا متحررات .

قالتْ قطام مشيرةً ناحية جسد المرأة المتفحم:-

- وهل هنالك يوم أكثر سواداً من يومنا هذا !!!

تمتمتْ بائعة الفجل بتأثر:-

- ستكون عباءاتنا مسمار جحى .

تساءَلتْ المعلمة :-

- أين نهرب من ماضينا ؟

بادرتها مستطردة إثر صمتْ قطام :-

- سنعيش بذلك محنة اينانا مع الرجال .

قطام هي التي رأتْ حركة أصابعهن وجلة ، لينة ، هزتْ رأسها باحتفاءٍ وبتأثر وهن ينزعن عن رؤوسهنَّ عباءاتهنَّ ، من تحتِ ظلمةِ العباءات استيقظ فجرٌ مفضوحِ رمى جبته السوداء ليتحرر منها فجرُ أجسادهن الأشقر الذي تناوشته مواشير الشمس ، فتمايلتْ الظهيرة شقراء حريرية دائخة تؤكد شفافيتها ساعةَ شمَّ انخفاضاتْ طياتْ هضابهنَّ الساخنة .. تطاير.. تألم.. تناثر فتاته من حلاوةِ عبقهن مواشير ضوئية رسمت كشاكشها على جدرانِ المسجد وحيطان المنازل المجاورة .. بهذا دار ناعور النار يحرق الحزن الأسود الذي تراصف ذليلاً في مشاجبِ النارِ، نيران تأكل نيراناً ، نيران خضر تلتهم أسفلت عباءاتهن " كبساطيل" من نارٍ تجوس إسفلت الشارع ، فشكلنَّ الحواءآت :/ أورو القطامات /

تفوهْت قطام بكلمةٍ واحدةٍ :-

- أشك .

تساءَلت شقيقة المحترفة بحزمٍ :-

- بِمَ ؟

قالتْ :-

- بكن .

ذكرتها حزينةً :-

- أيكفيك دليلاً ما فعلناه بآدم زوج أختي ؟

غازلتْ شفتاها الشهوانيتان ابتسامة الرابح على مائدةِ القمارِ ، انتزعتْ من رقبتها إحدى الدمى ذات الزّي النسوي ، مقلدةً :-

- خذي ((***سيميا***))[1] . إنها دميةالخلود ... أنتِ الآن خالدة .

عقبتْ :-

- لستُ سيميا أنا .....

قاطعتها :-

- أنا أراكِ سيميا .

شعرتْ سيميا بريبةٍ نحاسيةٍ باردةٍ ، أفصحتْ عنها :-

-ماذا بعد حرق العباءات ؟

---

[1] سيميا : زوجة النبي لوط

قالتْ قطام ببرودٍ :-

- الوأد .

تساءَلتْ :-

- وأد مَنْ ؟

قالتْ :-

- كل ذكر.

راغ ضوء الظهيرة كثعلبٍ أشهب يلوذ متقافزاً خلف غيوم رصاصية متناثرة شكّلنَ مع ضوء الظهيرة أرخبيلات غبشية متشرذمة زرعت وجوه الموءودين بلون حبري ، طلى وجوههم بثلجٍ حبري مثل لون زهرة الحرب ، لأول مرةٍ ... أضحت النسوةُ لا يندبنَ ، و لا يخرطنَ خدودهن ، و لا يلطمنَ صدورهنَّ ، و لا يمزقن ثيابهن .. صْرن وائدات : أطفال ، صبيان، مراهقين ، شبان ، رجال ، كهول وهرمين.

قطام هي التي رأتهم يتخبطون في أخبثِ ميتة كثر معها تأرجح ضوء الشموع لحركاتهنَ الدءوبة وهي تمزّق ثوب النار الذي تكدَّر وأضحى مهلهلاً نتيجة حضور بعض النسوة طالبات:-

- نحنْ نطلب رحمتك .

قالت بعينينِ معدنيتينِ :-

- رحمتي أن آخذ الطفل من يدِ أمه وأئده .

رفوش الوائدات رقشتْ مزدلفة الموءودين بقبورٍ نمنمتها آلاف الشموع الخرس ، رجال المدينة غير عابئين بالوأد ، بينما العالم الخارجي خائف ، يتشمم رائحتهُ فيتراجع مرعوباً يُشيّعه تساؤل خطيب الجمعة الساخر :-

- مَنْ أنتِ ؟

شلّتْ حركة بؤبؤيها رؤيتها إمام الجمعة بثيابه البيض أمامها ، قالتْ :-

- أنا التي رأت كل شيء .

قال :-

- وما رأيتِ ؟

قالتْ :-

- الخيانة.

عقبَّتْ :-

- الخيانة : مهنتي .

قال :-

- ما جنبتِ منها ؟

قالتْ بخيبة :-

- الألم .

قال :-

- آه . كدتُ أنساه . قانون الحياة .

رفعتْ حبل دماها ، فتأرجحتْ ظلالها فوق متن الخيانةِ ، قطام هي التي رأتْ استنساخ الدمى، دمية تستنسخ دمية ، دمى تنشطر من دمىً تتكاثر ، وما قطام إلاّ دمية صغيرة تحركها دمى أكبر منها ، قال :-

- أنا أرى .

قالتْ :-

- وماذا ترى ؟

قال :-

- الخراب في عينيكِ .

بعينين معطلتين أشبه بساعتين خاليتين من العقاربِ ، قالتْ :-

- أنسيت أن الجميع عميان لا يرون ما تراه .

أعادتْ حبل البريسم إلى رقبتها فتراكضتْ ظلال دُماها متقدمةً صوب متنها أصبحن

/***في جيدها حبلٌ من مسدٍ*** /، قال :-

- أمَنْ أجل الألم تئدين الذكور ؟

اقتربتْ منه هامسةً :-

- كل موؤد يعتبر "***نصبٌ حيً***" [1].. لخلودي.

قطام هي التي رأتْ أَنْ الذكور هم نصبٌ حيٌ لخلودها ، وخلودها يأتي بوأد الذكور ، إنها حكاية قديمة لناعور يدور بالكراهيةِ حول محور التاريخ وأذرعه منتضية حراب الطعن من الخلف تغدر الرجل وظله ، قالتْ :-

- لقد أنفقتُ التاريخ وبداخلي يتقاتل غولان : حقدي وكراهيتي .

---

[1] قال راجيف غاندي: كل طفل يبصر النور في الهند سيكون بمثابة ((نصب حي)) لوالدتي الراحلة أنديرا غاندي .

مهر حواء كان نزول آدم من الجنةِ واليوم مؤجل مهرها : الوأد ، فحواء هي التي أدارتْ ناعور الدم مع دوران عقارب الساعة فكان الدم هو ما بدأ به الناعور دورته ، لم يتوقف قط .

أبداً يدور ، لا النهر ينضب و لا محوره يعطب ، وأذرعه استبدلت الدلاء بالحرابِ ، تشحذ وتطعن سبعاً عجافاً يأكلن سبعاً سماناً في سوق الهرج كانتْ الأرض سمراء صارتْ مرجانية... عنابية ... لكثرة ما قُدِّمَ فوقها من قرابين ، قالتْ :-

- درْ أيها الناعور . درْ.

أرادتْ عكس دوران ناعورها بالوأد ، كون كل الأشياء في الطبيعة تدور عكس عقرب الساعة:((***البيضة المخصبة ، الذرة ، المجرة ، الشمس ، القمر ، الأرض ، الطواف حول الكعبة***)).إلاّ قطام أدارتْ ناعورها مع عقاربها ، قالتْ :-

- خذوا حصتكم من الوأد .

قال :-

- كل شخص مستعدٌ أَنْ يظلمك .

. . . .

قال :-

- كل شخص مصّغر عن : قطام .

قالتْ قطام :-

- أيُّ قطام ؟

رأتْ قطام ارتجاف طرفي شاربه ، قال :-

- الشجاعة جداً والجبانة جداً ، الكريمة جداً ، العفيفة والخائنة ، الطاهرة والقذرة ، المسالمة والوائدة...

قالتْ :-

- وأنت ؟

قال :-

- ما أنا الاّ خروفُ يخاف الخروج عن القطيعِ .

هدرتْ ضاحكةً وهي تشير بسبابتها ناحية صدرها :-

- ماقطام إلاّ جب الخيانة .

....

أنفقنا عمرنا نعيش في ظلِ الجّب . بداخله . نبنيه ، نعليه حتى تطاول بناؤه حول قاماتنا ،

آنئذ أمسى لكل واحدٍ منا جبّه الذي يقبع فيه ، بئره ، سجنه. قال :-

- سجنك كراهيتكُ للرجالِ .

قالتْ باعتزازٍ :-

- أنا التي رأتْ كراهيتها .

أذن . الدودة ما زالت داخل التفاحة ، والداخل منخور، نخرته دودة عمياء لا تدري أن التفاحة نظرة من الخارج والذي نخرته هو : القلب . روح التفاحةِ هو الأساس بينما الخارج . مجرد قشور ، أراد الشيخ إمساكها من يدها التي تؤلمها :-

- ماهو مهرك هذه المرة ؟

قالتْ بصلافة :-

- الروح .

السماء كمؤخرة دجاجة زرقاء محتقنة بشرينات عنابية ، باضتْ قمراً فضياً اندلق سائحاً فوق هلامٍ جلاتيني بلون الليمون الأصفر ، شعتْ البيضة الفضية خيوطاً " ألمنيوميةً" كابيةً فاض منها رذاذٌ غباري يصهل بوجه الشمس مناكفاً اياها بطلوعه ظهراً اجتمعتْ الشمس والقمر صافيان في سماءٍ صمغيةٍ ثقيلةٍ / ***الشمس والقمر بحسبان*** / ***والسماء رفعها وَوَضع الميزان*** / قال:-

- أتؤمنين بالقرعةِ ؟

قالتْ :-

- أُؤمن بالحظ . فقط .

قال :-

- / ***إِذ يُلقُونَ أقلامهم أيهم . . .*** /

هزتْ رأسها بنعومة ، رُمِيَتْ الأقلام ، سارتْ كل الأقلام مع التيار إلاّ قلمٌ واحدٌ ضد التيار . أذن .الابيض يفوز ، رأتْ قطام فوزها ، والخاسرون تماسيح تبكي حظها ، حظها بلون دموعها ، ودموعها بلون وجوهها ، و

وجوهها بلون أعمالها ، و أعمالها : سود . سود . سود.
إذن . الأسود خاسر ، قالتْ :-

- مزَّقنَ جبته .

قال:-

- عندما أوأد . ابقين يدي اليسرى خارج التراب ، ستشاهدنَ / ***وسطى***/ يدي منتصبةً بينما بقية الأصابع مضمومة . حتى وان أطبقتنَها ستعاود الانتصاب .

قالتْ بعنف :-

-أوأدنه وأجعلنَ كفه اليسرى خارج التراب .

بابتسامةٍ متنبئةٍ خرج صوته متهدجاً :-

- ستوأدين في جبٍ حضاري .

وأدٌ على وأد ، ترابٌ فوق تراب ، ظلالٌ بجانب ظلال، دمىً تحركت منزلقةٌ من متنها يرغبنَّ بمشاهدة الشيخ الذي كان وجهه إلى السماء وعيناه مشرقتان تقلبان وجوه الدمى، قالت:-
-ماذا ترى الآن يا شيخنا ؟

بعينين صافيتين قال :-

- تريني وأراكِ ، سعيدةٌ وشقي ، عيناكِ وعيناي مسلولتان ، وكلانا دمية . دمية تحركها خيوطٌ خفيةٌ ، أنتِ دميةٌ كبيرةٌ تحركك دمى أكبر منكِ ، وكلنا ... دمى صغيرة في جبٍ متلولب ، حصار داخل حصار ، والدودة داخل التفاحة ،قالتْ :-
- ماذا ترى ؟

قال :-

-***اللوح المحفوظ*** .

قالتْ :-

- اقرأ لي ما تراه .

قال :-

-***أنا لا اقرأ... أنا أرى ...***

قالتْ بنفاذ صبر:-

- ماتراه على اللوح ؟

قال :-

- أرى داخل اللوح ((***الإنسان وهو في بطنِ أمه يُكتب له أما أَنْ يكون شقياً أو سعيداً***))...قالتْ :-
- دع عنك ما في الداخل . الداخل وهم ، وقلْ لي ماذا ترى على الهامشِ ؟ فالهامش هو الأساس .

قال :-

- مأراه يخيفني .

قالتْ :-

- مايخيفك لا يخيفني .

قال :-

- يوماً اثر اخر الحلقة تضيق عليك ، تصغر ، والدائرة الكبيرة أصبحت خرم إبره ، وأنت محاصرٌ وسط الخرم . بالضبطِ في منتصفهِ .. يوماً بعد آخر وحدك تلوك آفاتك .. أنت آفة الهوامش ، لم تكن يوماً دودة كنت تفاحة تتعفن داخل الدودة و الدودة في شجرةٍ

/ ***لاَّ شرقيَّةِ و لا غربية*** .../ بالضبط في مركز الحصار.

عيناه لاهثتان مشدوهتان تتابعان ما ورد على الهامش :-

- يوماً بعد يوم تكتشف بأنك ضحية لعبة كبيرة ، هائلة ومخيفة، وكنت فيها دميةً صغيرةً، هشةً وقشيةً. أنفقت عمرها تعيش نصف في الظل والنصف الآخر تحت الأضواء الساطعة.

سَرَحَ الشيخ مبتسماً مع حركةِ تأرجح ضوء الظهيرة فوق لحده ، انحصر الضوء، فكفَّ الشيخ عن الابتسام بينما يعود ضوء الشمس للتأرجح يعاود الشيخ الابتسام ، ثم انحسر الضوء بسبب انهيال التراب عليه . آنئذ . كفَّ الشيخ نهائياً عن الابتسامِ ، قالتْ متبرمة :-

- ماذا ترى الآن ؟

قال من غيبوبته :-

- يوم (***التناد***).[١]

باردة . الأرض باردة ، برودتها محببة . مخدرة . لاسعة لسعات ضامة احتوائية تحيل صلصال الجسد الأسمر

---

[١] يوم التناد: يوم تولون الأدبار .

إلى عجينةٍ شمعيةٍ تستلم بكبرياء وغرابة لجسد الأرض يرتديها بلدونةٍ رخيةٍ ساهياً عن شفتي الشيخ اللتان تدمدمان معذبتين عاتبتين على العينينِ البيضاوينِ الغائمتين لحظة انبثق من مقلتيهما الحنطاويتين خط دمعٍ ساخن ومعذب مصبوغاً بحمرةً فاترة ، وحدها قطام رأتْ بعينين فزعتين رامشتين مصيرها في /*وسطى*/ كفه اليسرى ، جثتْ على ركبتيها تضّم الإصبع لباقي الكف فتعاود الوسطى انتصابها . تميدها ، تأبى الانحناء وتبقى منتصبةً.

أخذتْ تلتقط الحصى ، ترمي به قبر آخر رجل يوأد ، تبَّتْ يُدلكِ يا قطام ، باطلٌ أنتِ .. فيما حصواتها السبع يقصفنَ ***سبعاً عجافاً*** ، سوّتْ بائعة الفجل من وضعِ عباءتها .. عيناها معذبتان ترشحان دمعاً لمشاهدتها رجالاً ببذلات سود يلقون بائعة الدمى في حوضِ سيارةٍ حديثةٍ.. عشرات العصافير المزقزقة رقَّطت جدار المسجد ، أطلَّ خادم الجامع متطلعاً بعينين محرورتين لدمى ***قطام الخرساء*** ، أخذ يلملمها في زنبيلها الخوصي ، ثم بعينين ضارعتين شاهد كهرمانة تسكب من دلائها الأربعين غروباً بنفسجياً

منغَّماً بدفقات حلمه ليلة أمس ، تناديه قطام رغم بكمها ، قائلةً :-

- ***أينْ تهرب من ماضيك يا مَنْ ستولد فيما بعد ؟ .. إقرأ زمنا عنكبوتياً حاصرنا بنسيجة القاسي ،... كلنا رأينا. لكن ! مَنْ الذي يتكلم لكم يا جيلاً آتٍ ؟***

الجذرُ التربيعيُّ للقمر

قمرٌ أحمرُ أدكنُ تأرجحَ بين تربيعٍ أول وتربيعٍ ثانٍ . لا حل ، أُحتجزَ القمر تحت الجذرِ التربيعيّ ، صافراتُ انذارٍ متقطعةٍ تلاها دويُّ طائراتٍ قادمةٍ تَسبقُها التماعاتٌ فضيةٌ . انفجارات. صيحات . ارتعاشات ، دويُّ طائراتٍ مبتعدةٍ أعقبه صافراتُ انذارٍ مستمرةٌ ، المدينةُ رادارٌ رماديٌّ كبيرٌ يسترقُ السمعَ وشهرزادُ في آذانِها وَقْرٌ سكتتْ عن الكلامِ المباحِ لسمَاعها أذاعةَ أعلاناتٍ متواصلةٍ نقلتها كافةُ الاذاعاتِ السمعيّةِ والمرئيّةِ :-

أعلان/ ***مطلوبٌ مُحّنطٌ ماهرٌ بخبرةٍ لا تَقِلُّ عن عشرِ سنواتٍ*** / .

*   *   *

أعلان/ ***درجةٌ شاغرةٌ لنجارٍ خبيرٍ بصنعِ التوابيت*** / .

*   *   *

أعـلان / *على مَنْ يجـد في نفسـهِ القـدرة على النـواحِ الحضور إلى قـصرِ الامير شهريار* / .

*   *   *

أعـلان/ ***يرجى مـن: الـدفاّنين ، النـواّحين ، المـّزين ، قـارئو الأدعيةِ حضورُ موكبِ جنازة*** /.

*   *   *

عَبَرَ المشـيعّونَ شـوارعَ المدينـة / ***تـابوتٌ خشـبيٌّ كبيرٌ*** / تـوّجَ منـاكبَهم ، ضـمَّهم دربٌ طويـلٌ مـزدحمٌ : دفـاّنون ، سماسـرةٌ ، متملّقـون ، شحّـاذون ، منـافقون ، انحـدروا برهبــةٍ كَسَــرتْ مواشــيرَ الضــوءِ البلّوريــةَ يبــدون كشناشـيلَ مغروسـةٍ في الأسـفلتِ ، تمازجـتْ انفاسُـهم

مندفغـةٍ مـع الـوانِ ملابســهمْ المتدفقـةِ كمـدٍّ بشــريٍّ حركاتُـهُ تزفُـرُ زَبَداً رَغوياً زَنِجاً حَجَـبَ شُـقرةَ الشَّـمسِ ، سـاحَ نـواحُهم في شـرايينِ المدينـةِ بكـاءاً عَطِّلَ رادارَهـم عن التقاطِ لغطِ المشيّعين :-

- مَنْ المرحوم ؟
- مَنْ اهله ؟
- ابنُ مَنْ ؟
- كيف توفى ؟
- هل اصابتهُ شظّيةٌ نتيجةُ القصفِ ؟
- أقُصِفَتْ دارُهم ؟
- ماذا يشتغلُ ؟

تدافع وَسْطَ المشيّعين سؤالٌ اندفعَ كديكٍ يلاحقُ دجاجةً :-

-اغنيٌ ام فقيرٌ ؟

فاض بكاؤهمُ مُجّطماً سواتَر ترقُبِهِّم سأل رجلٌ بدين ذو بدلةٍ انيقةٍ :-

- هل المرحومُ موظفٌ كبيرٌ ؟

هتف دفاّنٌ بصوتٍ فيه نبرةُ يأس :-

- افتحوا التابوتَ لنرَ مَنْ بداخِلهِ .

بائعُ شموعٍ يضعُ سبّابتهِ على فمِ الدفاّنِ مُصدراً صوتاً طويلاً :-

- هُسّ !

كمشروع حلمٍ منسربٍ في حنايا الذاكرةِ تذكرتْ بطونُ الجياعِ نواحَ بطونهم ، سأل احدهم ملبياً نداء بطنه:-

- أَيوزّعون فيها ثواباً ؟!!

مقمرٌ قلقٌ بصوتٍ مخنوقٍ :-

- نخسرُ. دائماً . نخسرُ.

النوّاح ماضٍ في ترديدِ موّاله الحزين :-

- لا الهَ الا هو ... لايدوم الا وجهُهُ ... ذو الجلال و الاكرام ...

شحّاذٌ يحجلُ على عكاّزةٍ خشبيةٍ يدمدم بصوتٍ شاكٍ -:

- لننتظرْ! لنْ نخسرَ شيئاً .

قارئُ ادعيةٍ نصحَهَم بصوتٍ مشروخٍ مثلُ قطارٍ سياحيٍّ:-

- اصبروا حتى تصلَ الجنازه إلى نصبها .

*   *   *

اضاءتْ الشَّمسُ بغروبِها هاماتِ النخيلِ بشعلاتٍ لازورديهٍ ، والمشيّعون ينظرون ناحيةَ ضريحٍ ابيض مهَيبٍ يكسو جدرانَهُ رخامٌ اشهبُ ، بدا الضريحُ تحت ضوءِ الشَفَق كأنه زَفَرَ ناراً على مجمرةِ الافقِ التي كستْ جدرانَه نُعاساً بلونِ الدم ، تجمّع الدفاّنونَ ، المنافقونَ ، الشحّاذون ، والسماسرةُ بينَ القبورِ مطوَّقين باسوارٍ هُلاميّةٍ بنقاطِ التفتيش ، بائعُ اكفانٍ يُفشي سرّاً :-

- رجالُ الاميرقد اشتروا منيّ كَفَناً يَسَعُ فَرَساً !

هَمَدتْ مجمرةُ الكونِ في كانونِ الافقِ ، القمرُ بتربيعهِ الاولَّ سجينُ جذرِهِ التربيعيَّ يبكي بدموعٍ من فضةٍ تَقَطِّرَتْ بألتماعاتٍ معدنيةٍ ، همستُ مُتحّسراً :_

- ياالهي ! ألتهمَ القمرَ جياعُ العالمِ الثالث .

فَتَحَ التابوتَ رجالٌ انيقون ذوو بدلاتٍ سودٍ . ذهولٌ . ترقّبٌ ، اظهروا جثمانُ المرحوم : ((***اربعةٌ قوائمٍ بيضٍ رشيقةٍ ، أُذنانِ بيضاوانِ كبيرتانِ ، عينانِ سوداوانِ***

واسعتانِ ، وجسدٌ ممشوقٌ رياضيٌّ العضلاتِ ينتهي بذيلٍ ابيضَ طويلٍ)) .

*   *   *

سكتتْ شهرزادُ عن الكلامِ المباحِ لسَماعها بياناً مُهّماً نقلته وكالاتِ الاذاعاتِ السمعيّةِ والمرئّيةِ ، بيان / ***يتوجَّهُ بالشكرِ الاميرُ شهريارُ إلى السادةِ مشيّعي جنازةِ فَرَسِه*** / .

ألزا ...ماما [1]

صـورةٌ بالأسـودِ و الأبـيضَ توسـطتْ شاشـةُ التلفزيـون لمـذيعٍ قلـقٍ مـائعٍ كـدبقٍ كثيـفٍ يتنـاوبُ محركاً جسـدهُ ذاتَ اليمينِ وذاتُ الشـمالِ مراوحاً كأنـهُ جـالسٌ وسـطَ مقلاةٍ والمقلاةُ فـوق النـارِ، يـذيعُ بصـوتٍ خطابيًّ جـادٍ :
طقس الزاماما :-

- ***ايها المشاهدون الكرام .. موعدُ شروقِ الزاماما ليومِ غدٍ ... ((أنا جندي عربي))*** .

أش بني ((***عزيزو***))[1]. دعنيِّ اسمعْ .

- ***موعدُ غروبها .... ((بندقيتي في يدي))*** .

هُسّ . عزيزو .

---

[1] زاماما :الحرب في لغةِ العرب القديمة .
[1] عزيزو: اله الحرب العربي .

- ***درجةُ الزاماما العظمى المتوقعةَ خلالَ الأربعةِ والعشرين ساعةً المقبلةْ ....((تي .. تي ... طا))***

أسكت .

- ***رياحُ الزاماما داخليةٌ ناخرةٌ قارضةٌ دائمةُ النخرِ تنشطُ ليلاً متسببة بنقلِ براغيثَ متطفلةٍ....((تي .. تي ... طا)).***

صفيرٌ نئٌّ تلوكهُ ترنيماتٌ معدنيةٌ كالسعالُ الديكيّ ، جاءَ ولدي عزيزو وتغنى بها ، سرُّ هذا النشيدِ الباسلِ مثلُ سرُّ كلكامشَ المستحيلِ وعمرهُ بعمرِ عداوتنا ، خمسون سنةً مضتْ يقولون لنْا : حاربوا ، فحاربنا .. حاربنا حتى انفسنا كنا نمسك البندقيةَ ونحارب... ((... ***أحمي فيها وطني من شرورِ المعتدي***...))

.اصمت عزيزو .

علمونا كيف نجعلُ البندقية والرصاصة تحققان النصر .. ((***تي.. تي...طا***))

عزيزو .

بين طعنِ القنا وخفقِ البنودِ خضنا أربَعَةَ عشر الفاً وخمسمائةَ زاماما كلها خاسرة لم نربح زاماما واحدةً بعيداً عن خطِ النارِ معاركنا محسومةً سلفاً لأعدائنا كونهم يحاربون على اساسِ فرضيةٍ تقول : ((***اننا سنحتجُ ، نعارضُ ، نهّبُ ، وتستمرُ معارضتنا عشر سنوات إلى خمس عشرة سنةً . لكننا في النهاية سنخضعُ للأمرِ الواقع . السلامِ***))[٢]. سلامٌ هجينٌ جرذٍ ابيضَ بذيلٍ اسودٍ . ضحكٌ على الذقونِ . عبثٌ جعلنا نمدُّ ايدينا مصافحين القطط ، القطُ مقدسٌ في زاماماتنا حيثما نكون مان عدونا آمنا من قططنا .. يتكاثرون .. يُستهلكون .. يتناسلون .. يتدربون على الغشِ والأختفاءُ ، يحفظون عن ظهرِ قلبٍ مسالكَ الأنسحابَ البديلةَ فيحرجلون هاربين ناحيةَ جحورهم بمهارةٍ فائقةٍ اتقنوا حربهم الشاملة التي احد اركان ستراتيجتها الفضول مبدأ اعرف عدوك الشئ الوحيد الذي تعلمناه منهم : الحّيطةَ والحذر.

حذرون مناورين وسط الوغى ، كل زوج /***ذكر و انثى***/ من اعدائنا تنجب انثاه ثلاثين- اربعين مولداً في السنةِ

---

[٢] حَسَمَ ((نتنياهو)) مسألة القدس على اساس هذهِ الفرضية .

، لا تستغربوا نحنْ في زمنِ التكتلاتِ والتكتلاتُ ضمن شروطها تحتاج إلى أحدِ مقومات ستراتيجية الزاماما: تكتيكُ التكاثر ...

- كش ملك .
- ....
- أبي .
- نعم عزيزو .
- انظر!
- لِمَنْ ؟
- لشاشةُ التلفزيونِ .
- مابها ؟
- ملكنا يصافح عدوه .
- مذيعُ المقلاةِ يصرخُ بصوتٍ معدنيًّ خادشٍ :

((فلنعتصرْ الزاماما في مصافحةٍ اخويةٍ ، وإنْ جَنَحُوا للسَلم فآجنح لها ... ((هذا للأستهلاك المحلي)) .

هُسّ عزيزو . دعني انصت .

.... دعوة لرئب الصدع العربي ، كل من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ...)) .

الذي حصلَ إِنْ ابي سفيان دخلَ بيوتَ الناس ولم يطرق احدٌ باب داره ، ما من بيتٍ بالمدينةِ إلاَّ ورحَّبَ بالزفاف الجماعي ، زفَّ العرسان بسياراتٍ بوكسيةٍ سودٍ ، كان الليلُ عجينةَ قطرانٍ قوامها ثقيلٌ مائعُ العتمةِ رطّبتهُ فضةُ القمرِ التي انزلق منها رجالُ المراسيم الذين يرتدون بذلاتٍ سودٍ فخمةٍ حركاتهم حذرةٌ سريعةٌ ، متلصصةٌ رشيقةٌ منتشرون صوبَ عتمةِ المنازلِ ، يحمل كل فردٍ صندوقاً خشبياً واحداً يضعهُ امام احدِ الدورِ بتكتمٍ وتعتيمٍ٠٠ أياديهم ليّنة غرقة داخل لحمٍ باذخ ، حراسٌ ليليون عطلوا حناجرهم عن نفخِ صافراتهم تَقيَّةً ، فكل زاماما عصريةّ تحتاجُ إلى دائرةٍ جديدةٍ من دوائرِ الخديعةِ ٠٠لنْ يُزاد نهرُ الدم ٠٠ لنْ تصب فيه قطرة دم ٠٠ حربٌ باردةٌ مكتشفها يكرهُ منظر الدم ، ينبذ اسلحة الدمار الشامل و لا يحبذ سياسة الارض المحروقة فكان سلاحهُ الأبيضَ الجديد غيرُ محرمٌ دولياً/ ***ذكر وانثى*** /.

ذكرٌ وانثى تسللا داخلين بعينين لاصفتين حذرتين ولكي يـربح كلُ ذكـر الوقـت دخـلَ الـذكورُ على انـاثهم مثـلُ دخول مرود البندقية في فوهتها .

* * *

ليـلٌ منكـوبٌ كـدرٌ... آلافُ الجـرذان شّـنتْ زامامـا شرسـةً ضـاريةُ علـى الفئـرانِ... سـاءتْ الزامامـا والجـذران تهـيمن مثـل سياسـة القطـب الواحـد التي رياحها داخلية ناخرةٌ قارضةٌ دائمةُ النخرِ تنشـطُ ليلاً بنقلِ براغيثٍ متطفلةٍ من فئرانٍ ميتةٍ .

* * *

نهـارٌ امفـوتيري .. روتّينيّ .. جـرذٌ فرائـهُ برونـزي كابيّ أطـلَّ مـن مكمنـهِ بعينـينِ مسـتنفرتينِ مترصـدتينِ مسـتطلعتين فيهمـا ومـيضُ الخـداعِ حَرجَـلَ برشـاقةٍ ناحيـةَ جثـة آدمـيّ ، توقـف ، تشـممها، رفـعَ خطمـه لسـماعهِ صـوتٌ اصـطكاكِ عجـلاتٍ مثقـلٌ بكراهيـةٍ محبوسةٍ ما بين قرصُ العجلةِ ذات الحجم ثلاثة عشر ومحورها حامَ غشاءُ غبارٍ رقيقٍ حول جوانبها مشكلاً كيانـهُ ، فـرَّ الجـرذُ مرغمـاً، شـاهدتهُ بقامتـهِ المديـدةِ ودشداشـتِهِ حائلـةِ البيـاض مراقبـاً ببؤبـؤين كـوريين

متحــركين نهايــاتِ الأزفــةِ ، اقتـربَ بعربتــهِ.. قلــيلاً ..أكثر.. عيناه المترصـدتان اسـتقرتا فـوقَ الجثـةِ ، ركـن عربتـهُ ، نسـبتْ اصـابعهُ المنحوتـةِ مـن حجـرٍ بـاردٍ قـاسٍ بمتنيّها ، ملمسـها اشـبه بمطاطٍ ليّنٍ بانـتْ عليه آثار عضـاتِ جـرذان تنضحُ عفنـاً صـديدياً لزجـاً ، كان منظرُ الجـراحِ عـدوانياً تلفـّع ببقـع دمٍ يـابسٍ ، سـحبها واضـعاً اياهـا بجانـب جثتـين في عربتـهِ الشـبيهة بتـابوتِ آدم، غطاهـا ببطانيّـةٍ عسـكريّةٍ مُقلّمـةٍ قـذرةٍ لونهـا اخضر وابيضَ كالح ، استأنف دفعَ عربتهِ
بعسرٍ ساحباً خلفهُ ظلةُ المديدَ وصوت الأصطكاك الشاكي لدواليها يشكوا ثقل الأجساد المسجاة فملأ رأسي بوشوشة ضاغطة أدتْ إلى تعبي وأنا اراقبه احتواني بعينيهِ الكبيرتين المتنبأتين الشبيهتين بعينيّ نوستر اداموس ، متسائلاً :-

- هل شاهدت موتى في هذا الزقاق ؟

تساءَلتُ ببلادةٍ :-

- أيُّ نوعٍ من الموتى ؟

جاءني جوابهُ بارداً غامقاً كالطاعون :-

- موتا زاماما الجرذان.

قلت بثقةٍ :-

- في الداخلِ جثةُ أبي.

كانتْ اشعة شمَّس الزاماما حارة غليظة خشنة مثلُ انفاس ابناء الجنوب ساخنة لاهبة ، حركةُ ظلالٍ صغيرةٍ تطوف في صهدِ الظهيرةِ لذبابٍ اخضرٍ سمينٍ يئز كاراً فاراً ، قال والثقة واضحةً قويةً في صوتهِ :-

- انا خادمُ الموتى .

اصطبغتْ قبعة الجامع الزمرديّة بغبرةٍ رصاصيةٍ توحي بالتيفوسِ الخبيثِ وتثير في نفسي احساس جندي مهزوم ، قال بصوتٍ فيه ثقة مذيعيّ الشاشة الفضيّة -:

- ماذا افعل فالسلام افضل مانصنعه لموتانا .

جثة ابي باردة كالألمنيوم وجهه يابس مسالم ، طافتْ في رأسي رؤى بناتِ نعشٍ يحملنَ ابيهنَّ الذي اصابهُ الطاعون الأسود ، سقط رأس ابي متسبباً بارتفاعِ جفنِ العينُ اليمنى التي ظلّتْ صامتة مطروحة بجحودٍ داخلَ قشرةٍ مطاطيةٍ مستباحةٍ بزمردٍ وسخٍ ، انتهينا من تغطيتها ، مَسَحَ جَامعُ الموتى عرقةُ المتصبب من

جبهتهِ بكمِ دشداشتهِ فبدتْ جبهتهُ كفخارٍ جافٍ تربصتْ بهِ سواقٍ خردليةٍ ناشفةٍ ، قال :-

- أُ جيدُ جمع الموتى .
- ....
- لا تستغرب .
- ....
- فأنا اسمّي جمعَ الموتى لعبة السلام .
- ....
- أُجيدُ لعبةَ السلامِ .
- ....
- أُجيدها رغم كونها لعبةٌ قاسيةٌ .
- ....
- لا تستغرب انها لعبةُ الموتِ والحياةُ .
- ....

من بعيدٍ شاهدتُ جرذاً يُحرك فصّي عينيه في نظرةٍ خرساءَ مشبّعةٍ بغرابةٍ ذابلةٍ ، قال :-

- نادنّي خادمُ الموتى .

عقّبَ بطريقة مسرحيةٍ مشيراً ناحيةَ جثثهِ المكدسةِ
-:

- ((*أنا خادم هذا الشعب*))[1]

عددٌ لايحصى من الموتى غطاّهم برونزٌ براّقٌ صلدٌ مثلُ معدنٍ صقيلٍ كان النهار معها برونزياً براقاً معديناً ، غطّتْ وجوههم بملامحٍ متصلبةٍ بألمٍ ، ملامحُ ذابلّةٌ لوجوه نصف ممحوة مَلويّة على عناءٍ متيبسٍ مثلُ طينٍ غليظٍ ، ناس كانتْ لهم الارضَ مستقراً ، وجدتُ الارضَ تتنفسهم بهدوءٍ ../ ***مِنهَا خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً اخرى*** /، غادرونا صامتين بعد نصفَ قرنٍ هتافٍ وتصفيقٍ ، تصفيقٌ وهتافٌ ، غرقوا بصمتٍ نيءٍ ساخطٍ ، اياديهم سائبة مبسوطة الاصابع بتراخٍ سخيٍّ . خسارة . ما عادتْ الايادي تصفق وكأن خادمُ الشعب عطلها بكلمته المحمومه : منافقون

.

[1] ((انا خادمُ هذا الشعب)) : قالها نلسن مانديلا اثناء تولية الحكم في جنوبِ افريقيا .

اجبته بصوتِ انسانٍ فانٍ : مظلومون لا حول و لا قوة لهم ....

قاطعني بصوتٍ لوثةُ الطاعون الدملي :-

- انكَ لا تستطيع مغادرةِ نفسكَ .
- ....
- ليس بامكانكَ الخروج منها .
- ....

ثانيةً . ظلهُ يمتدُ . يرتَمي طويلاً رفيعاً زلقاً يزحفُ ماسحاً ترابَ الشارعِ المسلفتِ اثناء دفعَ عربتهِ ذات الظلالُ الكثيفة ، عند منعطفِ الزقاقِ امتزجَ ظلهُ مع ظل عربته ، خلّفني ورائه اعاني وحشتين : وحشةٌ مبهمةٌ مرتهنةٌ في ماضٍ بلا جناحين ، والاخرى متسّلطة مماحكة تمثلت بصقرٍ منتوفِ الريش ، وبصفتنا شعبٌ مسيَّر لا مخيّر نتسم بالطيّبةِ والتسامحُ لحقتُ به ، قلتُ بصوتٍ جريحٍ :-

- أرغبُ بمساعدةِ الموتى .
- ....
- أودُ منحهم السلام .
- ....

اوقف عربتهِ قائلاً :-

- ثمة شرطٌ لدخولكَ اللعبة .

قلتُ بشغفٍ :-

- هاتة .

قال بصوتٍ باردٍ رَجَّعَةُ بياض عينيه الثلجي :-

- اتعرف الموتى ؟

قلت منفعلاً:-

- اغلبهم .

قال في اكتئابٍ :-

- اذن . انت لا تصلحُ لها .

تساءَلتُ في تبرمٍ :-

- لكني تخطيّتُ الحدَّ الفاصلَ للعبةِ السلامِ .

قال شاكَّاً :-

- كيف ؟

قلت :-

- بموتِ ابي دخلتها .

سلامُ اواخرِ ساعات الليلة بعد الالف لحكايا شهرزاد السلمّية ، اجاب بحدقتين معلقتين في بياضهما اشبه بساعاتِ سلفادور دالي الذائبة في الهواءِ ، قال :-

- عزيزو عندما توُّد صنعَ السلام للموتى عليك أَنْ لا تعرفهم .

قلتُ منقبضَ الصدر وانا اشاهد عيني نوسترا داموس تتسعان متنبأتين بحديثي:-

- المهم ان ادلو بدلوي .

قال:-

- الموتى لايقدرون خدماتنا السلميّة .

قلتُ بخبثٍ :-

- ماثمنُ تشييّعنا للموتى ؟

قال :-

- دخولُ التاريخ .

قلت :-

- التاريخ يستحقُ إِنْ يبصق عليه.

قال :-

- الخيرُ بيّن والشرُ بيّن .

قلت :-

- ماحجم السلام ؟

قال :-

- بعدد ما سنشيّعهُ من جثث .

قلت :-

- دعنا نتقاسم السلام معاً .

مرةٌ شاهدتُ تقريراً عرضهُ التلفزيون عن انتحارِ حيتان البالين الضخمة جماعات بينما تُحلّقُ فوقها اسرابٌ من طيورٍ بيضٍ زاهيةِ الريشِ صائحةً في سماء رصاصية مزرقة : ***سلام...سلام*** ، والحيتان تحتها تنتحرُ جماعاتٍ بسلامٍ حديّ ، حَدَسَ بما افكر به ، قال:-

- عزيزو . نحنْ بلا سلام ، كيف تريد ان تصنع لاناسٍ تعرفهم سلاماً زائفاً .

قلت بصوتٍ مخنوقٍ :-

- اكل ما تفعلهُ كان سلاماً زائفاً ؟

اعترض بصوتٍ متمردٍ عالٍ :-

- اتنعتُ ما اصنعهُ بالزيف ؟

قلتُ غاضباً :-

- ***/كبر عند الله مقتاً أنّ تقولوا ما لا تفعلون /*** .

قال :-

- انا أملك السلام الحقيقي . أملكة .

- ....

- أملكةُ لانني لم اشترك في زاماما واحدة لاني لا احبّها ....

- ....

.....

سألني فاقداً هدوءه :-

- أما حاربت يوماً ؟

شيّعتهُ بنظرةٍ لزجةٍ ثم قلت :-

- لم اشهر سلاحي بوجهِ احدٍ .

وانا احدثهُ تذكرتُ عندما كان عمري اربع عشرة سنة ذهبتُ وأمي برفقةِ جاراتنا وبناتهنَّ إلى ضفةِ نهرِ الفرات ، اشعلن بنات الجيران شموعهنَّ ووضعنَّها فوق اطوافٍ خشبيةٍ صغيرةٍ ، عمدت شمُس الغروبِ إلى اشعالِ شمعتها تضيْ الافق بلهيبٍ برتقالي رفيعٍ وباهت ، تهاوى الغروبُ انثى متوهجة تسرح شعرها وحيدة ، دفعت البنات طوافاتِ شموعهنَّ تلقفتهن مويجات الفرات بنّية لدنة حميمية كاصابع عروسٍ ،رددنَّ متضاحكات بخجلٍ :

((***يازكريا . هب لنا فارساً يروض جمالنا***)) .

غـافلتهنَّ مرافقـاً مطـارداً طوافـات الشـمع ، وجـدتُ نفسي ، فارسُ امتطى صهوةَ فرسٍ صهباء ، بيدقٌ كنتُ ارفـع دشداشـتي ممسـكاً بها بـأمِ اسـناني ، ملوحـاً للشموعِ بسيفيَ الصغير ، حَسَرَ المدُّ طوافاتُ الشمع ، لتقطتها جامعاً اياهن احساسٌ لايوصف إنْ تحصلَ علـى كـلِ بنـاتِ المحلـةِ الجمـيلات حـال امتلاكـكَ شموعهنَّ ، هتفُ وسيفيَ الصغير منتصباً بيدي : فزتُ ؟صوتٌ خشنٌ افزعني :كش يا عزيزو . كش.

تراجعتُ تاركاً سيفيَّ يسقطُ من يدي منكمشاً ذليلاً وقعتُ دشداشتي تكفّن سيفيّ المخذول، التفتُ جهةُ الصوتِ مرتبكاً ، كان جلالةُ الملكِ رافعاً دشداشتةً زاهيّة البياض بيد و بالاخرى قابضاً سيفهُ الكبير متوعداً ، بدا سيفهُ تحت فضةِ المساء لحمياً مهيباً مرعباً في طولةِ وعرضةِ ، صرخَ بصوتٍ ضاّرٍ:-

- ارفع يديك ...

- ....

- الويلُ لكَ فقد استوليّت على كل نسائي .

ان الله سبحانة وتعالى لما عَجَنَ طينةَ آدم اَمَطَرَعليها سحابة الهموم والحزن اربعين سنةً وأَمَطَرَ عليها السرور سنةً واحدةً .. ، نظر خادم الموتى حوله بعينين نديتين ، هَمَس ليّ:-

- أُحبُّ المهزوميّن .

جعلتني كلماتهُ اشعر بأحساس جندي هارب . فار . يطوفُ مدن الجنوب سيفهُ في غمدةِ يردد نبوءةِ عراّفةٍ صابئيةٍ : ((***ستنشبُ زاماما عالميةٌ ثالثةٌ سببها دولةٌ صغيرةٌ في ارضها ذهبٌ سائلٌ***)) . السيفُ صدأ في غمدةِ ولخيبةُ تناسلت غاديةً جيشاً احتشد امام

حدقات الجرذان ، وقدما الجندي الهارب تراوحان قدمٌ في التابوتِ واخرى خارجة . لا فرق . دوامةٌ تمتد لتتبدل .. تكبر لتنشطر .. تنشطر لتصير صوراً ، الصور تتناسخ إلى : ارضٍ . وطنٍ . انسانٍ ، وزمنٌ مثلومٌ صديْ مثل عنكبوت ((***دهر الاكرايسوس***))[1] في برزخهِ يراوح بثمانيةِ اقدامٍ ، يسار يمين ، واحد اثنان ، محبة سلام ، يسار يمين ، محبة سلام وكل يومٍ نصحو فيه على المحبةِ والسلام ، شعرتُ بكلماتهِ نيراناً نشبت داخل ضلوعي تحرقني ، جعلتني اشعر كجندي هزوم ، ابصرتُ ذباباً اخضرَ سميناً متمادٍ يخوض زاماماتهِ كاراً فاراً ، فاراً كاراً ضد جرذان تقرضُ بهمةٍ جثث فئران منتفخة مثل آلات لا تكل و لا تمل عن القرضِ وقرضها نذير موت انبعث من ثقوبِ الجثث بشكلِ روائح ابليسيّة خانقة ، جثةُ طفلٌ تضمُّ شمَّس الظهيرةِ الامفوتيريّة على جسدهِ الطرّي ثمة ذباباتٍ شرساتٍ ينهشن مهاجمات شفتيه الزرقاوين بضراوة تشاركها هجومها العنيد ديدانٌ سودٌ سمينة تحرثُ عينيه نشطة صلبة ، سألتُ :-

---

[1] دهر الاكرايسوس : دهرُ المحبةِ والسلام .

- أحاربت يوماً ؟

وجهه الاسمر تشوبه زرقةٌ مهتاجةٌ وعيناه سوداوان واسعتان متنبأتان معلقتان فيما بين مقلتين ملتهبتين ، قال :-

- حَارَبَتُ وحُوربت .

سألتهُ في خبثٍ :-

- أحاربت يوم زكريا ؟

ابتسم ابتسامةً مريرةً لوَتْ شفتيه المبتسمتين ، قال :-

- حاربتُ فيه اشدَ مخاوفي ... وخسرت .

قهر الطاعون بليونةٍ طيّعةٍ صخبَ أخوة يوسف في زاماماتهم ، مضاجعاتهم ، مؤآمراتهم ، بغتة حلَّ سكونٌ ابكم كفّنهم براياتٍ صفرٍ ، استسلمنا ، رفعنا راياتنا الصفر بعد خمسين عاماً من زاماما إلى زاماما في زاماما الجرذان حصلنا على السلام مقابل الارض ، سألته :-

- اهزمك الملك ؟

ظلّت عيناه خائرتين كامدتين ، تَنَفَسَ بعمقٍ ، أَغَمَضَ عينية تعباً ثم قال بصوتٍ مشحونٍ بالزاماما :-

- غلبتني نفسي .

أنبرى قائلاً :-

- نفسي عي عدوي .

قلت :-

- خوفي عدوي .

سأل :-

- هل انتصرت عليه ؟

اجبته :-

- اسمعتَ عن جبانٍ انتصر على خوفهِ ؟

استطردتُ :-

- رغم انيّ لم اخض زاماما واحدة ، ولم احمل سلاحاً في وجهِ احدً .

تموّجتْ رائحةِ عفنٍ حرةٍ طليقةٍ كريح أبنُ أوى ، رمقني بخبثٍ ثم قال :-

- انت كاذب لقد سبق لكَ و أن حملت السلاح وشهرته .

قلت ممتعظاً :-

- لم احمل سلاحاً قط .

شاهدت وجوه الموتى خضراً أشبه بمرارةِ صفراء
تلصف عيونهم ذاتِ الجفون الزمردية بنظرات احتقارٍ
سالت من رأسي حتى اخمص قدميّ كسائل الصفراء
جلاتيني غليظ، قال :-

-وسيفك الذي شهرتهُ يوم زكريا .

أحسستُ بأنني مثل نيكيتا خروتشوف عندما القى خطابهُ في هيئةِ الامم سنة ١٩٦٠ وأدعى :***((أن مصانع بلاده الحربيّة أخذت تنتج الصواريخ العابرة للقارات كما تنتج مصانع أخرى عندهُ السجق والنقانق))*** .

كان يكذب ، مثلهُ كنت كاذباً . اذاً . نحن مرتهنون في اكاذيبنا مثل آدم محتجزٌ في تابوتهِ ، نصف قرن مضى على مصرعِ اوَّلِ جرذٍ بيد احفاد آدم . الآن . في اول زاماما بعد اربعة عشر الفاً و خمسمائة زاماما فعلية ابيد اغلب احفاد آدم ، سألتهُ:-

- الهذا السبب تمنح السلام .

ابتسم ابتسامةً متواطئةً ، وكأنه اكتشف حلاً لمشكلةِ الصفرين ، قائلاً :-

-أُعيدُ أنتاج نفسي في صنع السلام للموتى .

في الغروب حرجلت الوانٌ قرمزيّة قرضت جثةُ ملكةِ جمال مدينتنا التي رفضت مصافحة ملكةِ جمال العدو ، وجزءٌ من افق المدينةِ عندما شرع احفاد ميكي ماوس ينخرون جسدها المتصلّب بحركةٍ حربيَّةٍ ذروة الاقتتال **//اصابع يدها اليمنى مشهورة على شكل مسدس** / . رأيت رأسها بعينين منهوشتين ملوثتين بدم غليظ متجلط فيما اندفع جيش الديدان محتشداً على بوابةِ منخر انفها الايسر ، دثرتها ، والقمر بدورهِ غطاها بفضتّهِ الجلاتينيّة المحددّة بغيومٍ غامقةٍ ، كان خادم الشعب يراقبني مبتسماً ابتسامة الظفر ، قال :-

-وا أسفاه . دمها برقبةِ جرذ.

نظرت اليهِ نظرةً حامظةً ، قلت مجرداً صوتي من الاهتمام:-

-امامنا الآن جثثٌ كثيرةٌ يتوَّجبُ علينا منحها السلام .

*   *   *

فجرٌ دبلوماسي بعث اوَّلَ اشعتهِ بيضاء دبقه غبارها وسخٌ اجتاحَ سماءاً رصاصيّةً مزرقةً مثلُ زيَّ طلبة السلك الدبلوماسي وجزءٌ من مدينتنا التي بدت مثلُ صورةٌ تلفزيونيةٌ قديمةٌ كامدةٌ مشوهةٌ بالاسود والابيض ، انتهى مانح السلام من دفن موتاه ، منحهم السلام الابديَّ ، دواليب العربة تلحس اسفلت الطريق البليل بصوتها السمفونيَّ الباسل الشبيه بسمفونية البطولة التي اهداها بتهوفن لنابليون ، وميضٌ خاطفٌ قاطعٌ لقواطع قاسية جعلته يفتح عينيه مثلما يفتحهما نوسترا داموس يوم تنبأ بالطاعون الكبير ، قال :-

-لن يتوقف الطاعون حتى يأخذ ثأرهُ منك .

اذعن ..فبأمكان الجرذ ان يصنع النصر ، قلت :-

-دعني اقصُّ عليك حكايّةٌ عشتها ايام الحصار: ((***كان في بيت جدي لأبي قنٌ تعيش فيه دجاجات صالحات يبضنَ كل صباح ... أمضَّ الحصار بنا حتى بلغ عظامنا مما حدا جدتي ان تطلب منيّ صبيحة كل يوم ان اذبح احدى الدجاجات ، الدجاج القوي كان***

يفلت من سكيني يوم – يومين – اربعة حتى يأتي دورها كي تذبح ، الدجاجات الصالحات يقوقئن منتظرات متى تطالهنَّ سكيني)) .

ضَحِكَ . ضَحِكَ . ضَحِكَ خادم الشعب ثم قال :-

- ستنتظر دوركَ حتى يصيبك الطاعون .

أذعنُ ، فبأمكان الجرذ ان يمنح السلام ...

_ كش ملك.

-...................

-كش ملك يا عزيزو .

أفيقُ على صراخِ ابي ، اسألهُ مندهشاً :-

-ماذا هنالك يا أبي ؟

-أنظر !

_لِمَنْ ؟

-لشاشةِ التلفزيون .

- ما بها ؟

- ***ملكنـا يصـافح عـدوه بمناسـبة حلـول الالفيـة الثالثة ... الفية المحبة والسلام ... ترفض ملكة جمال مدينتنا مصافحة ملكة جمال العدو.***

اطفــالٌ يلعبــون (الشــميطرة) [1] **هتــف المســك بعصا اشبه بالصولجان :- حياة الحجاج .**

تطير العصا الصغيرة بعيداً ، تصول بين غابات الأيادي المتبارية بدأ العد :-

عشرة . عشرون . ثلاثون ، . . . . مائة ، كائة وعشرة ، مائة وخمسون .

هتف الجميع :- حي . الحجاج حي .

*   *   *

---

[1] الشميطرة : لعبة من العابِ الأ طفالِ في جنوبِ العراقِ تتكون من عصا وقطعة خشب مدببة الطرفين تسمى (الزاب) ويكون اداء اللعبة هو ان يضرب طفل الزاب بالعصا فيرتفع الزاب ويسقط على الارضِ ثم يضرب طفل آخر الزاب بالعصا ويسقط على الارضِ وعندما يسقط الزاب بمسافةٍ أبعد من مسافةِ سقوط الزاب الذي ضربه الطفل الآخر ، يكون الفائز هو الضارب الزاب الذي يسقط بمسافة ابعد .

فـتح سمسـم الأبـواب الموصـدة ، سـقط الصـمت متكسـراً متهشـماً بانفجـاراتٍ راحـتْ تكبر ، صـارتْ زمنـاً ملّلوثاً بالـوجعِ وآلمها آلامُ نوطة موسيقية كُسِرَ سلّمها ، ارتد لسنان الحجاج قائلاً :-

- خاسرُ مَنْ تركَ عُضوةُ الذكريَّ يُقطعُ.

شُرِّعتْ كل الأبواب المغلقة ، رجالٌ بلا أعضاءَ ذكريّة ، صهيلُ خيولٍ مخصيةٍ محاصرةٌ بانفعالاتٍ إنسانسةٍ ، هَرَجَ الرجال كَسَرَ أوانيَّ الصمت المفخورة ... علتْ اصواتهم تسأل :-

- لِمَ قَطَعَتَ أعضاءنا الذكريّة ؟

صهيلٌ وجري ..

جريٌ وصهيلُ خيولٍ أُخصيت عن منعطف الحصار فـوق الصـراط ، بـين حيـاةٍ ومـوت ، قسـوةٍ ورأفـة، حصـارٍ وحريّـة ، جـري و وقـوف ، بكـاءٍ وصـمت ، بكـاءُ الخيولِ افاقَ من سباتهِ ... مشى مثل البغايا ، علّق اصحاب الذكور المقطوعة بجزعٍ :-

- نحنْ نتألم

نظر الحجاج ناحيةَ الزمنَ العائد إلى الوراءِ . شدّ . دائماً شدّ ! أدبرتْ عيون الحياة من نوافذِ جفونها

تركتْ العالم زنزانة شُمِّعتْ بوابتها بالدمِ ، حشرجتْ الخيولُ بنبوءةِ الهلاك التي اطلقتها العرّافة بوجه قيصر / ممارسة / أضرمتْ نيران الحجاج تقول .. الآن . الحرق !

* * *

أغمض سمسم عينه . غفا . الأولاد يلعبون الشميطرة ، هتفوا :-

- حي. الحجاج حي .

* * *

مدنٌ تَخثَّر الدمُ في عروقها ، رجالٌ بلا أعضاء ذكريّة ، خيولٌ بلا فرسان ، لا تكرّ ، و لا تفرّ، منادي يذيع فرمانات حجاجية :-

- حاضركم يبلغ غائبكم كلّ مَنْ يريد أعضاءه الذكريَّة يجلب مقابل وزنهِ كتباً ؟

سألهُ احدهم :-

- لماذا الكتب ؟

---------- (لا جواب) .

- اطلبوا أيّ شيْ غير الكتب !

---------- (لا جواب) .

- كرر المنادي نداءهُ ثانيةً :-
- حاضركم يبلغ غائبكم ٠٠ كلّ مَنْ يريد اعضاءه الذكريَّة يجلب مقابل وزنهِ كتباً ؟

تراب . ضجة . شهيق مخنوق ، الشَّمس لَمْلَمتْ خيوط غزلها مثل عنكبوت فرط غزل سجادته الحريرية ، زفير نَشَرَ حسراته فوق خطوط الطول وخطوط العرض ، لا أحمر ولا ابيض ، الصراط خالٍ من نقاطِ التفتيش نزعتْ الحدود اسلاكها الشائكة ، مخصيٌّ يرتدي يافطة وفاة ينادي بصوتٍ مثقلٍ بقهرٍ مكتوم :

- ان الذباب لايصّفق إلاّ للقمامة .

*   *   *

- جلبنا كتب أجدادنا ، آبائنا ، أبنائنا ، وكتبنا ...

رددها الرجال لاهثين ، ضاع صوتهم مع جلبة الصبية ، أعادوا طلبهم باهتمام :-

- اعطنا الأمان فقد جلبنا الكتب ؟

الأفعى أغرتْ حواء ، تعرّتْ شجرة التفاح ، استرحمتْ عيون الرجال الأفعى أن : استري التفاحة !

قضم الحجاج جميع التفاح مستهزئاً ، أمرَ محاربيه قائلاً :-

- إذن . احرقوا الكتب .

ألسنةُ النيرانِ تلوكُ مملكةَ الورقِ ، تحرقها بلعاب جهنم ، وتأكلها كطفلٍ صغيرٍ يتلذذ بالتهامِ الشوكولاته ، ارتفعَ بكاءُ الكتبِ ، نحيبٌ مكتومٌ ، طقطقةٌ وجلةٌ ، هسهسة ، وعويلٌ مَزّقَ خدود الكتب ، تعرّتْ النار كأنثى خصبة حصدت بلهبها اللين المستعر حروفها ، انصرف الأولاد يصنعون طائرات ورقية من ورقِ الكتبِ ، صرخ مخصيّ اليافطة متعباً :-

- نحنْ في سَقَرْ.

أمر الحجاج محاربيه :-

- المزيد من النارِ.

لبس الغروبُ عمامته الحمراء ، قَطَعَ القمرُ شخيره الناعمَ ، أسَفَرَ جاحظاً مرعوباً كعيون المحترقين ، رمى الغسق عبائته البرتقالية ، تهادى القمر متأبطاً نبوءة العرّافة لقيصر/ دخان / استنشق الحجاج عبق الكتب المحترقة . عميقاً . عميقاً ، قال بخبثٍ :-

- آن للنار ان تتكلم .

* * *

الصبية يشدّون خيوط طائراتهم بأصابعٍ ملأى بالثآليل ، اشتبكتْ طائراتهم الورقية فزعقوا فرحين : الأخصّاء .

* * *

طائرات الصبية تبخرتْ بدخان داحس والغبراء ، حربٌ بلا أعداء ، بلا شهداء ، الرجال يحاربون

بأسـلحتهم الـزمن ، ولوجهـا وخروجهـا سـاعةً تؤكـد انقضـاء زمـن الشـميطرة ، كل ثانيـةٍ تسـقطُ طـائرةٍ ، يصرخُ طفلٌ منتشاً :-

- عضوٌ ذكريّ واحداً !

كلُ دقيقةٌ تصطدم عدة طائرات ، يهلل الأطفال مبتهجين :-

- ستون عضواً ذكرّياً!!

أقـدام الصبية هجرتْ الصراط ، تـدخل أتـون داحس والغبـراء / ***وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ*** / بيـارقهم حـائرة بين الحـرب فـوق الصـراط أو تحته ، صبي يغني بحماس:-

- موطني... موطني... موطني!!!

فـارتْ النيـران برعـودٍ حبلى بصـراخ المخصـيّين ، زمـنُ الأخصّاء امتد معمراً بخطى عمرها الف دهر ، تخصّي ورق السلام ، تسافر من اخصّاء إلى اخر ، من سـدوم إلى عمـورة و سـدوم بحلّـة زفافهـا تنتظـر الطوفـان ، سكارى نساء / عمورة / يصحنَ :-

- أينْ رجالنا ؟

ارتبكَ زفيرُ النسوةِ أمام منظر دخان الكتب ، لهث ، حجل فوق الرماد ، الحرائق مدّتْ اجنحتها دخاناً طائراً في سماءٍ غيومها لهيبٌ مستعر ، أجابهنَّ الحجاج بصلفٍ :-

- أخصّيتهم .

تأبط صبي أسمر طائرته الورقية ، دندن مترنماً :-

- موطني ... موطني ...
- مخصُّي اليافطة عَصَبَ عينيه بوشاحٍ نسوي ، سار متتبعاً غناء الصبي ، تعثر ، فضحكَ الحجاجُ منتشياً مثل ابرهة ، فوسوسَ باذنِ سمسم ان : اغلق الأبواب !

* * *

صعدتْ الجداّتْ إلى سطوحِ منازلهنَّ ، نهرنَ أحفادهنَّ قائلاتْ :-

- انزلوا !حضرتْ ***السعالي*** تَخطفُ الصبيّةِ المشاكسين لترسلُهم إلى ***الحجاجِ*** . انزلوا بسرعة

تجرع الأولاد أوامر جدّاتهم كمريضٍ يتجرع (الكنين) [1]

[1] الكنين : حبوب طيبة مصنوعة من مادة صفراء تستخرج من ورقِ نبات الكينا ، يكون طعم الدواء مّراً ويستعمل الكنين لعلاجِ الحمّى والملاريا .

ـ عطشُ ذاكرةِ النهر

صخورٌ مهشمةٌ ... أسماكٌ يابسةٌ ... جثثُ حيوانات مائية ... نخيلٌ متيبس ... أوانٍ صدئةٍ ... بقايا هياكلٌ عظمية لحيواناتٍ نافقةٍ ... نفاياتٌ... أحذيةٌ عسكريةٌ تقطنها سرطاناتٌ مخيفةٌ ... أيادٍ مفجوعةٍ تمسك بعددِ الحفرِ وزوارقُ خشبية محطمة . ترى كم مرةً عَبَرتْ ؟ ومَنْ حملتْ عند غرقها ؟ كلها أضرحةٌ تؤكدُ موت النهر.

المدينةُ ظمآى تبكي نهرها ، تجمهر الناس بعيونٍ قلقةٍ متأرجحين بين عالمين ، في كلِ عالمٍ يضعون قدماً ، في برزخٍ بين ارتواءٍ وعطش ، نورٌ وظلام ، بين حياةٍ وموت ، صراخٌ وصمت ، ابيض واسود .

امرأة متسولة ترتدي سروالاً رجالياً ازرق شعرها ذو تسريحة رجالية بلون الكستناء ، تمسكُ بيدها اليسرى سيكارتها ، أفعى خضراء موشومة فوق كفها

عند الإبهام ، كأنها تنفث سحباً زرقاً دخانية ، وتارةً تمجُّ نفساً طويلاً رصاصياً كالجحيم ، عيناها بلون الحبر الصيني تراقب الناس ببلادة بغل ، نظرات ثابتة ثقيلة ، صرختْ في صوتٍ كوارثيّ :-

- اتركوا جسد النهر يا كُفّار!

تعانقتْ نقاط الوشمِ الأربعةِ الموزعة في زوايا فمها الأدرد ذي الشفاه البنفسجية ، تردد نداؤها:-

- اتركوا المدينة .

الناس ضاجون كضجيج كورَة زنابير، تدافعوا ناحية النهر يبحثون عن بقايا حروبهم الماضية وآخرون يتصورونه مستودعاً يحتفظ بخيباتهم ، تنفث المتسولةُ دخان سيكارتها بمتعة ، سروالها يتطايرُ عابثاً مالئاً الحيّز بين قدميها ، عاوتْ زعيقها :-

- توبوا .. اطلبوا التوبة يا خطاة ...!

تدافعَ جيشُ الأطفالِ مطارداً ضفدعةً مرعوبةً ، النساء والرجال يتضرعون بأصواتٍ مستجيرةٍ أوجرتْ المتسولة كلماتها في صدورِ لمتضرعين :-

- كفى آن لكم ان تموتوا . استطردتْ : انتظروا موتكم .

هتف آخر :-

- لنترك المدينة .

نادى أحدهم بتساؤلٍ خُرافيّ مبتور :-

- مَنْ تنتظرون يا مساكين ؟

صَدَحَ اسمجهم بصوتٍ فيه نبرةُ انكسارٍ :-

- غادروا المدينة . لنْ يجري النهر أبداً . . . !

أمواجُ البشرِ تلدُ أمواجاً أخرى ، تتناسل كالذباب ، يتصاعد غبارها لافاً دائراً يندب نفسه كنساءٍ معزياتٍ ، ينفذُ صوت المرأة المتسولة كالرمح إلى خاصرةِ المدينةِ -:

- موتوا . آن لكم ان تموتوا .

*　　　*　　　*

يهلوسون بكلماتٍ كالمحمومين :- انتظرناك ألف ليلة وليلة ، ولم تأتِ . .

*　　　*　　　*

الشَّمسُ تتفتتُ كالبخار بفعلِ غيومٍ عاجيةٍ جعلتْ نفسها فرشاةً تغمسها بلهب الشمس صانعةً لوحةً

صارخةً تكثر فيها ضرباتِ الفرشاةِ السرياليةِ ، المعاول تحفر في جسدِ النهر آباراً فراغةً ، كل فردٍ يحفرُ لنفسهِ بئراً ، أصبح جسد النهر مجدوراً بملايين الآبار العميقة ، رائحة الطين تملأ المكان شوقاً لقطرةِ ماءٍ ، يحركهم لحنُ تدفق المياه بداخلهم ، تَوجَّعَ المجدورُ من ضرباتِ الفؤوسِ النابشةِ ، المتسولةُ تستجدي وتبكي ، تبكي وتستجدي بصوتٍ جنائزي :-

- جئتُ لأموت . امنحوني قبراً .

مجرى النهر خارطةٌ رُسمِتْ عليها مقبرةٌ حديثةٌ ، وجوه الحفارين زرق مجهدة مثل طينٍ غليظٍ مُزِجَ بمياهٍ آسنةٍ ، يُدهشهم استجداء المتسولة :-

- لله يا محسنين قبراً لفقيرة ٠٠٠ !!!

تدثر القمر بغيماتٍ بيضٍ قطنيةٍ ، عّنفها أحدُ حفاري الآبار الشبّان منزعجاً :-

- عشتِ حياتكِ كلها في الشحاذةِ ٠٠ و اليوم تستجدين قبراً ٠٠ ابتعدي .

خرج صوتها يرافقه دخان سيكارتها ساحباً كلماتها بصريرٍ موجعٍ كمن يسحب سريراً حديدياً على بلاطٍ :-

- يا الهي لماذا يقف الإنسان ضد الإنسان ؟

نهرها ثانيةً :-

- ابتعدي أيتّها المجنونة .

أشعلتْ سيكارة جديدة من عقبِ سيكارتها المنتهيّة ، مجَّتْ دُخانها نفساً طويلاً من غيومٍ رصاصيةٍ مشعثةٍ ، قالتْ وهي تواصل نفث عباراتها الغامضة :-

- مساكين أهل الأوهام يحفرون قبورهم .

رن كلامها مثل ضربات فؤوس تنبش الآرض بسخطٍ :-

- ادفنوا فيها : أحلامكم ... ذكرياتكم ... حروبكم ... خطاياكم ... أوهامكم ...

ابتلعتْ ضربات المعاول كلماتها ، عاودتْ موّال استجدائها الحزين :-

- قبراً لفقيرة !!!

*   *   *

طبول تقرع تضرعا : ((***متى يجري النهر*** ؟)) .

*   *   *

الغيوم عناكب خردلية نسجتْ مكوكاتها شباكاً معتمةً اصطادت الشَّمس والبشر. البشر مطاردون بتدفقِ أصوات المياه ، هرولتْ كلمات أحدهم :-

- احفروا . استمروا بالحفرِ .. سنجد الماء حتماً .

تتضاحك معاولهم بأصواتها القاضمة للطين ان : لا جدوى !

قال آخر :-

- واصلوا الحفر.

جهر صوتٌ نسائي من حفرةٍ بعيدةٍ :-

- لقد جرى ... جرى ... احفروا .

ابتلع كهلٌ ريقه باصقاً بشدة في كفيه ، صاح مفجوعاً :-

- نحنْ متواطئون مع الشيطان ...

كَفَنَ صوته ووضع في تابوتٍ ضيقٍ صراخ امرأة تحاول إرضاع طفلها من ثديها السائح كعجينةٍ ممطوطةٍ :-

- حلت نهايتنا . رحمتك يا الهي !

ذهـولٌ شـاحبٌ ركـع في وجـوهِ وحركـات الحفـارين ، عيونهم شاحبة باردة جاحظة في تشوشٍ كأنها عيون ضفادع باردة رخيّة تستفهم ببلادة ، حشودهم تنز عرقاً ، عيونه رطبة تجوس خلال الأشياء بترددٍ ، نذور النسـوة طمرتهـا أتربـة الحفـر ، طمـرتْ شـموعهم ، زغردتْ المتسولة فرحةً :-

- ولّى زمنُ الغربةِ وعاد نهرنا يجري . . . يجري .
- عيناها السوداوان زجاجيتان لمعتا بنداوةٍ مكابرةٍ ، قطعتْ الشَّمسُ البرتقاليةُ آلاف القطع بسكاكين حملتها الطيور الأبابيل بمناقيرها ، كأن أهل المدينة منذهلين ينظرون ناحية الطيور الأبابيل ، يرفعون رؤوسَ أصابعهم تتطاول رقابهم شخصت أبصارهم لتشاهد تحت فضة القمر البليلة المتسولة خارجةٍ من قبرها حاملةً ما بين راحتيها اليابستين ذاتي الأصابعِ الطويلةِ غَرَفَةَ دم . دم ساخنٌ وفائر . . .

زُلَيخاتُ يُوسُف

الحبوبي بعبائته الكاكية يرتسم على ملامحهِ حزن أسمر يشغل حيّز الصمت وسط الناصَّرية والناصَّرية فتاة التناقضات ، زليخة التي التهمتْ تفاحة الخطيئة الأولى فتكومتْ بين خطّي عرض ثلاثين واثنين وثلاثين . برزخان وهميان كنابين عاجيين للذئب الذي أكل يوسف . أهٍ. يا يوسف ! زليخة مدينةٌ وحيدةٌ محاصرةٌ رسمتها اصابع مبتور /***وقطَعَن ايدَيهُنّ***/ على خريطةٍ ورقها عذابات المحاصرين وقد اذهلتهم صيحات معلم تاريخ يضع حبل المشنقة على عنقه قائلا :-

- سأشنق نفسي و لا ارى محاصرين لا يستحقون الحياة !!!

دهستْ آخر ذؤابات شمس النهار اقدام المحاصرين يركضون في برزخٍ مظلمٍ ، أجسادهم تراكم في قيعانها قلق عتيق . متصادمين . متلاطمين ، مذعورين داخل مديات متخثرة بهواجسِ خوفٍ باردةٍ . شل حركاتهم ضجرٌ افسد حياتهم كما تفشل الأمم المتحدة في اتخاذ قرار . يدور المحاصرون في الطرقات بانفلاشات راحت تنشطر ، تتكاثر داخل قيعانها معتمة تخثرت بنداءات المعلم :-

- أفيقوا . رحى طاحونة الحصار تطحنكم .

المئذنة كبندول ساعةٍ عاطلةٍ لا يتكتك . توقف عن التكتكة متبوئاً بخبث مكانةً عاليةً في فراغٍ رمادي تطعنه اجسادٌ متراكمة تشاهد المعلم وقد احكم ربط حبلٍ بذراع تمثال الحبوبي . آلاف الحركات المتعبة لأيادٍ تزيح مشاهدات هزيلة ترسمها تلوحيات غليظة تنبع من الأرصفة المحيطة بالتمثال ، صاح بصوت حشرت فيه نبرة عذاب مكتومة :-

- أفيقوا . ان الحصار يعنيكم .

زعيق . صراخ . طنين . هدير . هتاف ، وطنين طفح سائحاً من : صبّاغي الأحذية . بائعي الشاي والفلافل .

جحافل الذباب بطنينها المقرف . بائعي الكتب القديمة . كناسي الشوارع . مضاربي الدولار ، ومنبه سيارة جمع النفايات التي كتب على جانبيها :- متى تينع الرؤوس؟ تزيح الناس منسكبين في ساحة الحبوبي يشاهدون المعلم يدفع الكرسي بعنف . سقط . شهق المحاصرون مبتعدين بضعة خطوات مرتبكة إلى الخلفِ ، الحبل بيد الحبوبي فارغ يتأرجح. يتكتك . لا فرق . يتكتك . يتأرجح بصمت لاهث يتعثر بدمدمة دائخة تغلي في صدور الناس عجباً مستفهماً عما يجري . نظروا لرؤوس بعضهم . هم بلا رؤوس يكابدون عناء أجسادٍ انتزع الكسوف رؤوسها فبقوا مجرد اشباح غبارية تؤدي طقوس : الحلم ، الضياع ، وجوع لا ينتهي لجسد زليخة .

كنستْ الظلمةُ آخر مناحر الضوء بمقشة الكسوف التي هرستْ رؤوس المحاصرين بين رحى ستراتيجيتها رؤى رؤوس اينعت وحان قطافها ، عاود المعلم صراخه :-

- سأشنق نفسي ولا أرى محاصرين لا يستحقون الحياة !!!

*   *   *

رّخ الكسوف قذف انفاسه مضمّخةً بسحابات دخانية سميكة العتمة جعلت مارد القمقم يستفيق داخل شرنقته النحاسية مهملا وسط جدرانها المجدورة بصدأ اخضر مستديم ، يزعق المعلم محاصرا بانكساراته :-

- لاشبيك و لا لبيّك . فقط . الحصار بين يديك .

ملّت طرقات المدينة خطوات أبنائها كما تمل الكف خطوطها ، صبية المدارس يطوفون في دروب لفَّها الغبار يضربون بأكفهم الدبقة على كتبهم هاتفين :-

- مَنْ انتزع الرؤوس ؟

آثار خطاهم اختفاءات مسورَّة بحصارٍ مدَّ اسواره عاليةً حول جسد زليخة ، مدينة بلا رأس . زليخةٌ بلا فضيحة تبحث في بقايا أسلحة الحرب المحطمة عن اصابع صويحباتها ، زفر الرّخ دوامات انفاسه سحباً

لاهبة اسفرت عن انفجارٍ يلّط أشعةً أيقظتْ ((***سنة لوعة***))[1] من رقدتها الأزلية .

استفاقتْ الدماء مندغمةً مع اختلاطات بقايا اطياف ضوء الأنفجار الذي تثاءب ممطوطاً كغرغرة ألم توجعتْ في الحلقِ بسخونة بترتْ يد زليخة تلك اليد التي قطفتْ التفاحة المحرمة . صخب الأجساد الملتئمة انسلخ متفتقاً من شرنقةِ الرهبة بانفراطات دموية تصب ممتزجةً مع : حطام أعلى المئذنة . رماد اسلحة الحرب . جثث مطمورة بتراب كاكي رَّقطهُ دم زليخة وهي تنبش التراب ، فتسألها لسنة الفضول :-

- عمَّ تبحثين ؟

أجابتْ :-

- / ***وَقطَعنَ أيديهُنّ*** / .

تساءلوا مستغربين :-

- أَيَّةُ أيادٍ ؟

قالتْ :-

---

[1] (سنة لوعة) :- سنة تلّوع فيها الناس من : جوع وقحط شديدين .

- الأيادي التي قطفت التفاحة المحرّمة .

ارتمتْ زليخة بارتعاشات زلزالية ملتقطةً بيسراها كفها المفقودة / ***تفاحة الخطيئة*** / يزينها خاتم ذهبي مرصع بفص كبير من حجر ازرق كريم ، وضعتْ كفها المبتورة تحت نعلها المتسخ برماد الدم ، راحتْ تنزع من اصبعه الأوسط خاتمها . سكون سميك ضبب أهل المدينة وهم منشدّون بتعجب طوق اجسامهم كالمعاطف ، لوّحتْ بخاتمها المرّصع بفص من دماء جلاتينية وهي تترنم بمواويل أخذتْ شكل نوافير خيبة تطلق الآهات و الأصابع . الأصابع و الآهات ، فيتصاعد شدوها الطروب حارقا عتمة الكسوف ((***شقيٌّ من لعبت به الأوهام...***)).

الكناسون يمسكون بمكانسهم لمتحركة كبناديل ساعات عديدة يرددون تعازيمهم الحماسية ، منشدين بشقاء أبدي محاولين كنس نفايات الأنفجار :-

- الحياة قمامة هائلة والأخرون لا يكفوّن عن اضافة المزيد .

اخترق جامع نفايات حشد الكناسين ، يدفع امامه عربة جمع القمامة محملة بأنواع مختلفة من الرؤوس ، ينادي بصوته الأخن :-

- رؤوس للبيع ٠٠٠ رؤوس للبيع٠٠٠ رؤوس للبيع !!!

وقف ابناء المدينة اشباحاً بلا رؤوس يلفهم غبار ذراتِ كحل بلورية متآصرة محاصرةً اجسادهم الواهنة بحصار جديد . حرب غير معلنة ، والحرب الغير معلنة حصار لنْ ينتهي ، ومعلم التاريخ يقف بجانب الحبوبي يمسك بحبله سائلاً طلابه بحرقة :-

- مَنْ المحاصر ؟ ومَنْ المحاصرون ؟!

تباشر سؤاله حاصرتها طلائع اسئلة زليخة :-

- مَنْ حاصرك ؟

أجابها :-

- أخوتي !

كررت :-

- مَنْ حاصرك ؟

أجابها مجهداً :-

- رؤوسكم !

الحت:-

-من حاصرك؟

اجابها متضايقاً :-

- ذئابكم !

قالت :-

-واجهها.

سألها :-

-كيف ؟

اجابت :-

-حاصرها.

قال :-

-حاصرتها.

قالت بأستهزاء:-

-انك تحلم.

قال :-

- انا حاصرتها .

قالت ضاحكةً :-

- انك لن تحاصر سوى نفسك.

اخترقهم جامع القمامة وهو يعرض بضاعته منادياً :-

-رؤوس للبيع ...رؤوس للبيع... رؤوس للبيع ..!!!

تجمهر المحاصرون متدافعين متزاحمين على عربتهِ، شرعوا يتفحصون بضاعتهِ ، كل شخص اختار رأساً يناسبه، رجل مبتور الساقين يقتعد كرسياً للمعاقين دفع عجلات كرسيه مخترقاً الحشد ، دهس قدم المعلم ، لوح المعاق بذراعه الضخم ذات الوشم المزرق ***/حياتي فداك يا يوسف /*** ،متسائلاً بغلظة :-

-هل انت اعمى ؟

اجابه المعلم في اكتئاب :-

-محاصرٌ بلا رأس !

لكمه هائلة لرأس معدة المعلم جعلت جسده يترنح بصرحة الم دوت محملة بأوجاع سنة لوعه:-

- اين الله ؟

تصارعت قبضات البسالة تكيل اللكمات لأجساد كسيحة فتحطمت رؤوس، دهست رؤوس ،قذفت رؤوس ،تفتت رؤوس ، سقطت لإثرها عربة المعاق، حاول ركوبها ثانيةً ،فشل ،فصرخ جزعاً :-

-انها قدري !

المعلم يراوغ بجسده المتحفز موجة لكمات هستيرية كالتها له الايادي المتصارعة ، توجهت لكمات عشوائية غاضبة حطمت مرآة صدره ، زمجرة متأوهاً:-

-سأشنق نفسي وأرى محاصرين...

عارضته زليخة بصوت معطوب قائلةً:-

-ولدتْ لأذيقكم مرارة الجبّ.

ضاع صوتها مشمعاً بدموع دمى ترتدي بساطيل سوداً ثقيلة تتخبط في أتون دوائر وهمية حرب وحصار.

أماطت اللثام عن زمن الطواطم المتراصفة كساعاتٍ عاطلةٍ تكدستْ فوق رفوف مصليحّها ، أمسك أحدهم بخناق جامع القمامة . صفعة . صفعة . صفعة . تساءلتْ زليخة :-

- لِمَ صفعته ؟

أجابها والدماء تلّوث قميصه :-

- لقد عقدتُ صفقةً تجاريةً معه كوني انحت رؤوساً من الشمعِ باشكال وأحجام وألوان مختلفة لأبناء مدينتي ...

قاطعته قائلةً :-

- ذئب .

استطرد النحاّت غاضباً :-

- بدوره يبيعها باسعار رمزية / مساعدةً / منيّ لحل أزمتنا الحالية ، والربح مناصفةً .

- موبوؤون بالوهم ...

جأر معلم التاريخ منهمكاً يُفصلُ من عباءة الحبوبي أكفاناً لأصابع الطباشير ، تراجع المحاصرون مأزومين بين فكيّ مقِصٍ كبيرٍ حادٍ ، منسكبين فوق الصراط

يتمايلون بنفايات الخوف يميناً ، بقذارات الأوهام يساراً ، وبوساخات الوسواس إلى الخلف تحثهم على عبور الصراط كلماتُ معلمٍ هرمٍ ملَّ اكل التفاح المحرّم من شفاه زليخة ، قائلاً:-

- في آخر العمر يصبح الرأس سلة مهملات .

تعكز الظلام على مئذنة الجامع المهدمة كأنها عصا موسى التي ضربتْ في الماضي البحر واليوم تضرب/ ***الحصار*** / ، فينفلش الكسوف منحسراً وعلى مهل تشرق شمس عذراء وسط سماء غبارها بنفسج مجذور بغيمات رمادية تتمطى في عالمٍ دخاني كقطط بلا رؤوس منذورةً تنفق عمرها تجوب طرقات المدينة تنقّب في المزابل ، تقلّب صفائح القمامة ، تتعثر بشرنقة نحاسية مهملة ، فأستيقظ المارد داخل قمقمه محاصراً بهمٍ عتيق ، نادى المعلم من مكمنه متآبداً:-

- لا شبيك و لا لبيّك . الآن ! حصارٌ جديد بين يديك .

*　　　*　　　*

توحمتْ زليخات الحصار بالتفاحة المحرّمة ، حوصرتْ نداءات توحمهّن مندغمةً مع صهيل خيولٍ حبيسة . تصهل بهذيانات تزاحمتْ تبحثُ عن جماجم هلامية باردة في مزادٍ يَعلن على بابه معلمُ التاريخ بعدما رمى حبل المشنقة بعيداً عنه :-

- ***/ مزاد الرؤوس العلني / ، سارعوا لأقتناء أحد الرؤوس وبأثمانٍ زهيدةٍ .***

بكاء الغرباء

صمت . مدن ملونة بالدم . أبليس . أغرق الكون بدم عصفور ، غنت السماء : نحن لا نعرف غير البكاء ، فأمطرت : دما !

*　　　*　　　*

غرفة منثورة ببقع دم داكنة ، الجدران ، السقف ، الارض ، والقضبان أطبق عليها شحم أسود . تبرق عيون تكسر فوق حدقاتها وهج نيران ... أزيز سياط ... بريق سيوف ... و ... دماء ...

دفعته أياد قوية ، تفجر نعيب وحشي ، صرخ ((أنا بريء)) ! غرقت استغاثته في بحار النعيب ، تدفقت موجاتها تصفع السكون . دهش . بصق تلاطمت موجات النعيب تغرق الدهشة ، طغت ، طفت البصقه كغيمة بيضاء في سماء رمادية . بصق !

- شياطين !

*   *   *

صمت . عالم محاصر . هولاكو . رسم خارطة العالم بحوافر خيوله ، هوت كفة الميزان ، قعقعت القيود : نحن لا نعرف غير الخوف ، فصنعنا : سجنا !!

*   *   *

قبضتان قويتان تلتقطان احدى العيون الباكية ، دوى نعيبها يمزق نسيج اللحظة الخرساء . الحاضر محاك من لعاب تخندق باشداق أضناها الصبر ، صوت سكاكين تشحذ . تربص ، سكون . صرخة ... رعشة .. أجنحة تقاوم الذبح ، بلع ريقه ، ردد عاجزا : ((غربان)) !

*   *   *

الظلمة ملك هرم متكوم على عرشه ، ابليس ينفض عباءته من غبار الليل ، تدافعت صرخة حبيسة من تحت عباءته :-

-أما كفاكم هابيل ؟

*   *   *

مثقل بالتساؤلات كمدينة محاصرة بخنادق من نار ، بكاء الغربان ونعيبها المفجوع ، يخدشان ذاكرة الهدوء ، احتجاج أجنحة مذعورة ، خوف ، ترقب ، عيون يحدقان مفقوءه ، شياطين يحرقون مدن خضرا بنيران هولاكو ، تساءل بكراهية :-

-لماذا تذبحونها ؟

تزايد شحذ السكاكين ، الغربان تنعب كنساء نادبات يبكين جنازتهن الخاصة ، تربص ، دمى ، مذابح ، لعب بلاستيكية بأياد مدماة ، من أقبية التاريخ تصرخ جماجم استفاقت مثقلة بحصار مدن مدفونة بتراب أرصفة الخديعة ، بغبار حانات الطمع ، بنفايات مزابل الكراهية ... جماجم ... جماجم بلا عيون ، وأخرى ترعى اسطبلات خيول الحقد ، وغيرها شواهد لحروب وهمية ، غربة ، نواح ، عويل ، حشرجات جياد متعبة ، والغربان ... تصفق بأجنحتها وسط دوائر سود من رقاع مهلهلة كملابس شحاذين ، تسأل أيديهم قبل عيونهم أن : ((لماذا نذبح ؟)) .

* * *

جماجم أرصفة البطالة ، غفت فوق عتبات الدم ، تنتظر ، أندلاق الشمس من بطن السماء بعملية قيصرية .

* * *

تناقصت الغربان الحبيسة ، مذبوحة ، غراب أثر غراب ، طغت أصواتها الكسيرة كمعادن تصطك ببعضها ردد مهزوزا :-

-اصرخي يا غربان !

١

صمت ، وظلمة ثقيلة كحكايات الموت ، تطاردنا بأجنحتها المعدنية العملاقة ، تخنق جسد الحلم ، صاح عاليا

-حلقي فوق مدننا المحاصرة .. انعبي ..

أصوات معدنية تجرح صدأ مسامعنا ، لطمة قوية ، بصق بوجهه . أخرس !

جلي صـدأ الاذن الشـمعية ، ذاب ، أسـتمر يـذوب ، سـأل ، أسـتبد متغطرسـا كالابديـة ، تـدافعت خيـول شـمعية صـفراء ككلماتنا المربوطة في معـالف الابجديـة ، قال متوجعا :-

- لا تصفعني ... لا ...

صفعة أخرى ، عربد مهددا :-

-اذا صفعتموني صرت أمامكم مثل عبد الناصر !!!

صـفعة ، صـفعة ، ثـم صـفعة ، عـلا طنـين كلماتـه ! الشمعية مثل طنين ذباب المزابل ، جأر:-

- لا ... لا ... سيكلفكم ذلك غاليا ... لا ....

تصـاعد صـوته ، كقـدوم قطـار بخـاري ، ينفـث دخانـه رماديا ثقيلا ، مع جئرات حديدية ، هددهم قـائلا :-

-أنا من كتب عنه فكتور هيجو ... أنا بائس .. أنا معدم ... أنا ...

توالت الصفعات كمتتالية عددية ، زعق بوجوههم : ((أنا بائس !)) .

*   *   *

فوضى . طوت الارض سواترها ، تعرى الليل مظهرا جسده موشوما بنجوم زرق لامعة . فوضى ... بدأ الكلام ... هش ... أنه الجلاد !

*   *   *

دمى بأياد مدماة ، صفقت ، اضطربت مناقير الغربان مرتعبة ، تلونت عيونها بلون عباءة أبليس ، أجنحتها السود كرايات سود تلوح في هواء مغتصب . ارتعبت . رفرفت نعبت . أمرته الدمى بأن : يرقص ! دهش تذكر ماضيه ، تصور حاله الان . رفض مزقت أصابع الدمى دشداشته السوداء ، رسمت حربة حاقدة كلمات غدرها ، صدره ممتلئ بالطعنات ، ندوب ، نهش أظافر ، صرخ بعصبية مشيرا الى صدره :-

- غدر .. حرب .. خيانة ... نساء . كلها تعلمت الكتابة فوق صدري .

نسى الكون ، رماه خلفه ، ترصد أنابيب الضوء الغباريه ، تتسلل ، كأفعى من عالم الثار نحو حاوية الرماد ، أجابهم بحزم :-

- لن أرقص !

*   *   *

فوضى . ذبح أخر الغربان ، كبرت أفاعي النار ، صارت ، شلالات ضوئية نثرت الرماد فوق دم البؤس .

دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد – ٢٠٠٥ م


دار الشؤون الثقافية العامة